خليل السكاكيني والدرس اللغوي

م.م. ميسم كاظم كشكول

الجامعة المستنصرية – كلية الآداب

تخصص / لغة

Massam184@gmail.com

الملخص:

تناول البحث بالدراسة خليل السكاكيني والدرس اللغوي، قدمت له بتمهيد بينت فيه حياته التي قضاها متنقلاً بين فلسطين ومصر وسوريا، وكذلك منهجه في التعليم واسلوبه. جاء المبحث الأول عن آراءه في اللغة العامية واللغة الفصحى. وتحدثت في المبحث الثاني: عن آراءه في النحو والصرف. وتناول المبحث الثالث: آراءه في الحروف والأصوات. وتكلمت في المبحث الرابع: عن آراءه في الكتابة. وجاءت الخاتمة لأذكر فيها اهم نتائج البحث.

الكلمات المفتاحية: (الدرس، السكاكيني، اللغوي).

Khalil Sakakini and the language lesson

Maysam Kazem Kashkool
Al-Mustansiriya University - College of Arts

Abstract:

The research dealt with the study by Khalil Al-Sakakini and the linguistic lesson, which was presented to him with a preface in which she explained the life he spent traveling between Palestine, Egypt and Syria, as well as his approach to education and his style, The first topic came about his views in the colloquial language and the classical language. In the second topic, I talked about his views on grammar and morphology. The third topic dealt with his views on letters and sounds. And I spoke in the fourth topic: about his views on writing. The conclusion came to mention the most important results of the research.

Keywords: (lesson, Sakakini, linguistic).

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

وبعد فقد شغلت الدراسات في تجديد اللغة العربية في كتب المتأخرين والمحدثين مجالا واسعا، فقد تنوعت بين النحو والصرف والحروف وأصواتها وكتابتها، ومن محاولات التجديد اللغوي، التجديد للغوي العربي الفلسطيني خليل السكاكيني لما لها من أهمية بالغة في هذا المجال. اقتضت طبيعة البحث أن يكون على أربعة مباحث مسبوقة بتمهيد ومتبوعة بخاتمة وعلى النحو الآتي:

التمهيد وتناولت فيه حياته التي قضاها متنقلاً بين فلسطين ومصر وسوريا والولايات المتحدة والمملكة المتحدة، وكذلك منهجه في التعليم واسلوبه.

المبحث الأول: تناولت فيه آراءه في اللغة العامية واللغة الفصحى

المبحث الثاني: تناولت فيه آراءه في النحو والصرف.

المبحث الثالث: تناولت فيه آراءه في الحروف والأصوات.

المبحث الرابع: تناولت فيه آراءه في الكتابة

تمهيد:

ولد خليل السكاكيني في القدس في ٢٣/١/١٨٧٨ م، وهو أديب فلسطيني مقدسي مسيحي، اهتم باللغة والثقافة، ويعد من رواد التربية الحديثة في الوطن العربي مما كان له اثر كبير في تعليم عدة أجيال (الموسوعة الحرة، د. ت)، وتلقى تعليمه في المدرسة الأرثوذكسية فيها، ثم انتقل إلى كلية الجمعية الإنجليكانية التبشيرية (cms) ومنها إلى كلية صهيون الإنجليزية في القدس، والتي كانت تدعى (مدرسة الشبان)، وكانت تعلم اللغة العربية النصرانية، لغة التوراة والإنجيل لا لغة القران والأدب العربي، ثم جاءها (نخلة زريق) أستاذ السكاكيني، أحد رجال النهضة الأدبية الحديثة في فلسطين وأستاذ العربية في مطلع القرن العشرين، فأتيح للسكاكيني أن يتتلمذ عليه، ويبدو أن اثر هذا الأستاذ في تلميذه واضحاً الذي أشبع فيه نهمه للغة به لها (الشنطي،

١٩٦٧: ١٧)، ثم انتقل بعد تخرجه عام ١٩٠٨ إلى المملكة المتحدة لمدة وجيزة، انتقل بعدها إلى الولايات المتحدة لزيارة أماكنها الثقافية من متاحف ومعارض ومكتبات، فأفاد معرفة واسعة، وتعرف هناك على الكثير من أساتذة أعلام علم اللغات، وعمل في تعليم اللغة العربية وساهم في كثير من المطبوعات الصادرة في ولايات الساحل الشرقي هناك، كما قام بالكثير من أعمال الترجمة، كما كان يتردد في نيويورك على جامعة كولومبيا يعين فيها أستاذ اللغة العربية على قراءة بعض المخطوطات العربية وتنقيحها (الشنطي، ١٩٦٧: ١٨) (الموسوعة الحرة، د. ت) (صيام، د. ت: ٣) ، لكنه قرر العودة إلى الوطن بعد مضي عام على سفره إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن تشرب مبدأ (نيتشه) الفيلسوف الألماني، واكتسب خبرة جديدة ومهمة فكانت مدرسته وزاده في حياته (الشنطي، ١٩٦٧: ١٨) (حداد، ١٩٨٣: ٦).

خليل السكاكيني حياته وآثاره:

يكاد يكون اسم خليل السكاكيني مجهولا في العالم العربي، ولكنه بالنسبة للفلسطينيين رأس الرواد سواء في المجالات الوطنية أم الاجتماعية والثقافية والتربوية والفكرية، وكان في طليعة المفكرين العرب الذين تنبهوا للخط الصهيوني في مراحله الأولى، فحذروا منه وانتهجوا في مواجهته كل أساليب الصراع والصدام، ابتداء من تبلور هذا الخطر في أواخر الحكم العثماني وحتى وقوعه في شكل احتلال مسلح عام ١٩٤٨ (حداد، ١٩٨٣: ٧).

كان خليل السكاكيني كائنا سكنته الأحلام الكبيرة، والطموح والقلق وهو شخصية متميزة لامعة تميزت بالتمرد والصدق والنزاعة، عبر عن رأيه بشجاعة منقطعة النظير ، وعرف بتقديسه للعمل، وبأعراضه عما يجانب العقل والمنطق (النيل والفرات، د. ت: ١/١) ، وكان من صغره مثقفاً راقياً ووطنياً ملتزماً، ولكنه في نفس الوقت ناقداً لمجتمعه وبيئته، فهو ينقل لنا صوراً عن حياته وأحداث موطنه القدس من دون تحرير أو مونتاج، وهو بعكس رجال السياسة والمتزعمين لا يركز فقط على دوره في الحيز العام لتبرير أعماله وتفخيم أثره وطمس نواقصه وهفواته فكان يركض وراء لقمة العيش،

ويصور لنا الأحداث من موقعه الاجتماعي المتواضع وليس من منظار علية القوم الذين يقاسمون رجال الدولة مناعم سدة الحكم وثوراته، وكان يسجل لحظات ضعفه وقوته وساعات فرحه وحزنه مع أفراد عائلة وتلاميذه وأصدقائه، وكان مستقيماً وأميناً في أقواله وأفعاله (النيل والفرات، د. ت: ٢/١) .

((السكاكيني عالم لغوي مجدد خدم اللغة العربية مدرساً ومفتشا ومؤلفاً وكان موهوباً متعدد الجوانب، فهو ناثراً، ومعلماً، وخطيباً، وناقداً، وشاعراً مبرزاً ومجدداً في جميع هذه المجالات. لقد كان مثالاً في اعتزازه بعروبته وقومتيه وقد عرف فيه معاصروه باحثا جري الفكر، واسع الافق، مستقل النظر، يفقد ويوازن ويضع إصبع على المشكلات، ويتصدى لرسم الحلول لها، ويعتمد على التجربة في منهجه التربوي)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٥-٦).

مجمع إن السكاكيني كتب معظم أبحاثه اللغوية في الربع الأول من القرن العشرين حين كانت الدراسة اللغوية يغلب عليها الجانب التاريخي، وكتبها إيان استداد المعركة بين أنصار القديم وأنصار الجديد الذي خاض هو غمارها مشاركا عدد من أقرانه مثل د. طه حسين، و د. منصور فهمي و د. محمد حسين هيكل ومصطفى عبد الرزاق، وسلامه موسى، وهي التي دفعت بعض أنصار الجديد إلى شيء من الغلو في التجديد والإسراف في مخالفة القديم والتشكيك في قيمته والبحث عن كل جديد هنا وهناك(الشنطي، ١٩٦٧: ١٠-١٢).

وأكثر ما كان يميز السكاكيني غيرته على اللغة العربية من خلال عنايته باللغة العربية في مدرسته، وكان يدرس القرآن للطلبة العرب، مسلمين ومسيحيين على حد سواء، وجعل نصب عينيه أن تكون اللغة العربية لغة التعليم لجميع العلوم دون حرمان الطالب من تعلم لغة أجنبية، ودخل اللغة العربية بالقاهرة مطلع ١٩٤٨ عضوا عاملاً بديلاً لصديقه الراحل مصطفى عبد الرزاق، فمضى يمد المجمع ببحوثه اللغوية النفيسة والتي تركزت في (النحو) و (الترادف) و (خواطر في اللغة) و (التشويش)، وقلما كان يخلو مؤتمر للمجمع من بحث له، وهو ابن سبعين عاما(الشنطي، ١٩٦٧: ٢٣)،

وكانت له تأملات فلسفيه عميقة ورؤى مستوحاة من تجربة الاعتقال المريرة، والملاحظ أن أديبنا لم يصل إلى مرحلة اليأس المطلق، ولم يخب ظنه بالناس والأصدقاء، وهو في ذروة المعاناة، وقد ذكر مواقف هؤلاء الأصدقاء والمعارف المشرفة، حيث قدموا له المساعدة والعون، وفي أشد الحاجة لها، ولم يغفل بالطبع عن أولئك الذين اكتشفت معادنهم في اللحظات الحرجة كان يمضي وقته في الحديث مع السجناء، والاستماع إلي همومهم، وتدوين الملاحظات والمشاهدات والأفكار والخواطر والقراءة، ويصف السكاكيني السجن الذي أمضى فيه عدة أشهر بأنه مكان واسع سقفه عال غير مبلط مفروش بحصر بالية وينام فيه مئة وخمسون شخصاً، لا تدخله الشمس، ولا يتجدد هواؤه، بارد شتاء، ويمضي المسجونين أوقاتهم بالتدخين وإيقاد النار للتدفئة، وسط حال من الفوضى ويصف مدير السجن الألباني بأنه بذيء اللسان، فظ الأخلاق، وله ثلاثة أبناء في السجن بسبب السرقة ويلومهم؛ لأن أحدا منهم لم يعطه خمسين ليرة من سرقاته، ولخليل رأي في السجون بلوره من خلال تجربته ومعاناته(العابد، د. ت) ، إذ يقول: ((السجن أسلوب قديم يجب الإقلاع عنه، والمجرمين لم يعودوا في نظر علماء النفس مجرمين، بل مرضى ؛ ولذلك يجب إلغاء السجون، واعتماد طريقة أخرى، منطبقة على العلم الحديث، السجون لا تقلل الإجرام في العالم بل تزيدها، السجون لا تصلح السجين بل تفسده ولاسيما إذا كان حدثا، فبدلاً من الاهتمام بالإجرام، يجب الاهتمام بالأسباب)) (العابد، د. ت).

في القدس عمل في الصحافة منقحاً، ثم صحفياً فمدرساً، وكان يصف نفسه فيقول: ((أنا أستمد شريعتي من نفسي وعقلي واختباراتي وحياتي اليومية)) (العابد، د. ت: ٣) وقد نشط في الميدان الثقافي بهدف إيقاظ الشعور القومي وبناء الإنسان الجديد والسير بأمته في معارج التقدم والنمو والفلاح.

أحب السكاكيني اللغة العربية حبا شديدا، واتصل بها اتصالاً مباشراً فمارس مهنه التعليم زمناً طويلاً في فلسطين ومصر، وعمل مفتشاً في مدارس فلسطين الحكومية،

وكان يؤمن بالمدرسة على نظم مبتكرة وبأسلوب الحوار والمناظرة لتكون أداة للنهضة الحديثة والإصلاح.

وحاضر السكاكيني في كلية الآداب بالجامعة المصرية في (أدلة البيان والأفعال، والحروف الهجائية) كما حاضر في الجامعة الأمريكية في بيروت في أصول اللغة العربية ومشكلاتها، وطرق تدريس فروعها المختلفة، وأخذ يؤلف ويكتب المباحث اللغوية الرصينة وينشرها في كتب أو في مجلات أدبية كالمقتطف والهلال، والسياسة، والشورى، والجامعة، والسفور، والأهرام (الشنطي، ١٩٦٧: ١٩).

ولا تزال بصمات السكاكيني حاضرة إلى يومنا هذا، سواء من حيث النهوض بلغة الضاد وآدابها وتوظيفها في خدمة بلده فلسطين لم من خلال عمله الصحفي الذي أسهم في النهوض بالشعب الفلسطيني ودعم نضاله ضد الاحتلال(الشنطي، ١٩٦٧: ٢١). منهجه في التعليم ومؤلفاته ومدارس أنشأها أمن السكاكيني بتحديث وسائل التعليم واستعمال الوسائل البصرية، وكتب عدة مؤلفات تشرح منهجه، كما أنه أعد وألف الكثير من كتب المناهج الدراسية في مجال اللغة العربية، وكان من أهمها كتاب اللغة العربية للصف الأول الابتدائي الذي يبدأ بدراسة كلمتي (رأس–روس) المدعمة بالصور والشرح، وقد درس هذا الكتاب عشرات الآلاف من الطلاب في بداية العشرينات وحتى منتصف الستينات، وقد نشر له اثنا عشر مؤلفاً في حياته ومن هذه المؤلفات:

١. فلسطين بعد الحرب الكبرى (القدس سنة ١٩٢٠)
٢. مطالعات في اللغة والأدب (القدس سنة ١٩٢٥)
٣. ستري (القدس سنة ١٩٣٥)
٤. الجديد في القراءة العربية أربعة أجزاء (القدس بين سنة ١٩٢٤وسنة١٩٣٣)
٥. الأصول في تعليم اللغة العربية الدليل الأول والثاني القدس سنة (١٩٣٩، ١٩٣٤).
٦. حاشية على تقرير لجنة النظر في تيسير قواعد اللغة العربية (القدس سنة١٩٣٨)
٧. لذكراك (القدس سنة ١٩٤٠)

٨. وعليه قس (القدس سنة ١٩٤٣)

٩. ما تيسر جزءان (القدس ١٩٤٣، ١٩٤٦) (الموسوعة الحرة، د. ت) (السكاكيني ٢٠٠٣: ٦) (صيام، د. ت: ٣٢١/٢) (كحالة، ١٩٥٧: ١٢٥/٤).

ومن أهم المدارس التي أنشأها هي:

١. المدرسة الدستورية سنة ١٩٠٩

٢. المدرسة الوطنية سنة ١٩٢٥

٣. كلية النهضة في القدس سنة ١٩٣٨والتي بقي يديرها حتى النكبة (الموسوعة الحرة، د. ت: ٦) (الشنطي، ١٩٦٧: ١٩) (صيام، د. ت: ٨/٢).

المبحث الأول

موقفه من العامية والفصحى

لا يعد السكاكيني اللغة مجرد معرفة لشوارد ألفاظها، وتراكيبها، وأحكامها، وتاريخها، إنما اللغة عنده، حياة وتقاليد وعقائد وأخلاق ومقدسات، وصاحب اللغة هو من يحاول إعلاء شأنها، وواضح هنا أنه يربط بين اللغة والاعتزاز بالقومية، لأن اللغة من المقومات الأساسية لهذه القومية لأنها تؤدي إلى التجانس وهي توحيد للعقل والفكر والثقافة معاً (الشنطي، ١٩٦٧: ٢٥). إنه كان على حرب وجفوة مع اللهجات العامية التي ظهرت سنة ١٨٨٠م على يد الألماني (وليم سبيتا) بكتاب قواعد العربية العامية في مصر(يعقوب، ١٩٩٩: ١٥١). يحارب من يدعو لها، ويساند كل من يدعو لإحياء اللغة الفصحي المقدسة عنده، وكان يحس أن اللغة الفصحى والعامية في صراع مستمر، تتنازعان البقاء، وكم جزع على العربية الفصحى مما كانت تتعرض له من خمول وإهمال، قبل النهضة الأخيرة؛ لذا كان يدعو إلى اللغة العربية الفصحى الحديثة التي تلائم العصر وتتبع من ظروفه ومقوماته، حتى تهزم العامية وتنتصر عليها (الشنطي، ١٩٦٧: ٢٥).

((كما وابتغى أن تكون اللغة العربية الفصحى المعربة هي لغة الحديث أيضا ولم يخطر بباله أن يضع لغة للعصر جديدة، بل كان يعني أن تكون لغة عربية

فصيحة حديثة التطور، متجددة، تلائم العصر الحديث بعلومه المستحدثة مستمدة أصولها من اللغة القديمة، على أن تحتفظ بأعرابها معارضاً من قال بإلغائه واللجوء إلى الوقف والتسكين، وكأنه أراد الحفاظ على تراث العرب الشعري القائم على الوزن والموسيقى اللذين يعتمدان اعتمادا كليا على تحريك بعض الحروف)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٢٦) (السكاكيني ٢٠٠٣: ٦).

وهو يرى أن محاسن الفصحى أكثر من مساوئها، ومساوئ العامية أكثر من محاسنها، وأنه وان كان من أهم مقومات الثقافة أن يتقن الإنسان عدة لغات فالأحرى بالعربي أن يتعلم بالدرجة الأولى لغة تراثه وقرآنه وأداة تفاهمه مع مواطني الدول العربية الأخرى(يعقوب، ١٩٩٩: ١٧١). ((ودعا إلى وجود المحققين الجهابذة، ليحفظوا على اللغة سلامتها ورونقها ويبعدوها عن الفساد، وضرب لهذه الانحرافات اللغوية أمثلة عديدة من مثل (أمكن له)، والصحيح (أمكنه)، و (هل سنفعل كذا) والصحيح (هل نفعل كذا) و (حديث مستفاض) والصحيح (حديث مستفيض) أو (مستفاض فيه)،)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٢٦) واللغة عنده كبيرة الصلة بالحياة، فهي مرآة الامة، وسجل تاريخها، كما أنها كائن حي تنمو وتتطور مع نمو المجتمع، واللغة الحية هي التي تنطبق على روح العصر الذي تحيا فيه، ولكل زمان لغة، فالبداوة لها لغتها، والسجع لغة زمان الحريري، والشعر لغة زمان أبي العتاهية، ودعا إلى أن نبعد عن اللغة ما كان يلائم عصر البداوة البعيد عنا، وطالب أن نهجر التراكيب التي ورثناها عن الماضي ولم يبقى لها مسوغ، لهجنتها وبعدها عن حياتنا المعاصرة من مثل (فلان تشد إليه الرحال) و (تضرب إليه أكباد الإبل) (الشنطي، ١٩٦٧: ٢٧). رأى السكاكيني أن التطور ناموس عام، فما من عنصر من عناصر الحياة إلا خاضع له رضينا أم أبينا، ومن لم يؤمن به فقد جهل كثيراً، فاللغة هي. اجتماعية تتبع من الناس وبين الناس. وهي متطورة في ألفاظها وأساليبها تطوراً، وواضح هنا أنه متأثر بنظرية (دارون) في التطور والنشوء والارتقاء، التي شاعت في زمنه، واستقبلها الشباب من أمثاله، والتي ذهب فيها إلى أن لكل عصر لغته وأسلوبه، فالسكاكيني في هذا يربط بين اللغة والبيئة،

وهذا عنده هو سبب تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات متعددة سواء في اللغة المكتوبة أو المحلية (الشنطي، ١٩٦٧: ٢٧-٢٨).

ويرى السكاكيني أن اللغة المكتوبة تتطور أيضا في أقليم عربي على نحو يختلف عنه في إقليم عربي أخر. من مثل ذلك أن السوريين يجمعون (ميل) التي هي بمعنى (هوى)، على (أميال)، وفي مصر تجمع على (ميول) وكلا الجمعين صحيح، وفي سوريا يستعملون (سمى)، وفي مصر (أسمى) وكلا الوزنين صحيح، وإن كان الأول هو الأشهر (الشنطي، ١٩٦٧: ٢٨).

في نظرية التطور اللغوي السكاكينية، أبعد عن اللغة العقم، والضعف والجمود إذ كان يكره أن تكون اللغة في قوالب جامدة يتعلمها الطالب، وذهب إلى أن القواميس اللغوية هي التي قيدت اللغة بسلاسل من حديد ومنع نموها وازدهارها؛ لأنه أولع بالتجديد اللغوي إلى حد بعيد، ودعا إلى هجر التراكيب والعبارات التي لاكتها الأفواه وملتها الأسماع حتى فقدت دلالتها وأصبحت قوالب جامدة من ذلك قولهم: (نشد فلان ضالته) و (فلان يصيد في الماء العكر) وهذا الجمود نفسه مع إيمانه بتطور اللغة، هما اللذان حدوا به أن يحكم على اللغة العبرية بالموت والفناء لانقطاع عهد الألسنة بها منذ زمن بعيد، ولأنها لغة تخلو من شروط الحياة، من جمال وسهولة واتساع وليس من المعقول أن تكون لغة (متو شالح) و (أرفكشاد) هي لغة اليهود في القرن العشرين (الشنطي، ١٩٦٧: ٢٩). ((وليس غريبا أن يود السكاكيني إبعاد اللغة عن الضعف والتحجر، وعن الفقر والركود، وهو المتأثر بفلسفة (نيتشة) و (أبي الطيب المتنبي) في القوة فكما دان بها في الجسم، ونشدها في المنطق والتفكير، وفي كل ما يراه أهلا للحياة والبقاء، فطبيعي أن ينشدها في اللغة لأنها أهل للبقاء والازدهار، فكان لا ينظر إلى اللغة العربية إلا من خلال فلسفته، يروقه منها ما أتسم بالقوة، معتزا بمتانتها، حريصا على سلامتها، معلنا عن رفعة مكانتها بين اللغات)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٢٩-٣٠).

وعرف السكاكيني أن لكل لغة خصائص ومزايا جوهرية، فأخذ يتحراها في لغته منذ وقت مبكر، فرجع بثروة لا تقدر من جدة الملاحظة ودقتها، إذ رأى أن هذه اللغة من ذوات الرتبة الأولى، لا تجاريها من لغات الدنيا، فهي لغة عبقرية لأنها لغة فخيمة في حروفها وأصواتها واضحة صريحة عند النطق بها، وفي حين أن كثير من الحروف في اللغات الأوربية صامتة أو خفية، وفي العربية من الحروف الحلقية ما لا يوجد في غيرها من اللغات، وهي تدل على بيئة نشأتها. وثاني هذه الميزات أنها لغة إيجاز لأنها معربة وهي أرقى اللغات قدرة على الاشتقاق، غنية في أفعالها، وفي حروفها، وتحتمل الإضمار والتقدير، والتقديم والتأخير، والحذف والإثبات أكثر من اللغات الأخرى، كما يظهر الإيجاز في أمثالها، وأشعارها، وخطبها، وسائر فروع آدابها (الشنطي، ١٩٦٧: ٣٠) (القلقشندي، ١٩٨٧: ١/١٨٤) (ابن النديم ١٩٧٨: ٩٩).

ويمكن أن ترد الإشارة إلى هذه الميزة في مجملها إلى الفراء الذي ذكر فضل اللغة العربية وخصائصها حين يشير إلى أن للغة العرب فضلا على لغة جميع الأمم اختصاصا من الله تعالى وكرامة بها؛ ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات.

وثالث هذه الخصائص أنها لغة شعرية، لكثرة استعمال المجاز، والكناية، والاستعارات، والإشارات، والتشبيه، ولكثرة مترادفاتها، ولتنوينها الذي يكسب الكلام جمال النغمة، كما هو واضح فيه:

إذا لرأيت ليثا رام ليثاً هزيراً أغلباً لاقى هزبراً

فالنبرات يجب أن توضع على التنوين في إذاً، وليثاً، وأغلباً، وهزبراً، لاسيما والمقام يقضي؛ لأنه لو لم يكن له غرض لزال من عهد بعيد فبقاؤه في اللغة إلى يوم دليل على أنه حاجة لا فضلة (الشنطي، ١٩٦٧: ٣٠) (السكاكيني ٢٠٠٣: ٢-٣).

ومن خصائص اللغة هي كثيرة التراكيب الإعرابية، فموقع الكلمة في الجملة يظهر أما بعلامات الإعراب، أو بالترتيب أو بالقرينة، على خلاف اللغات الأخرى التي

تعتمد على الترتيب فحسب، وألفاظها متنوعة بين الفخامة والرقة (الشنطي، ١٩٦٧: ٣١) (السكاكيني ٢٠٠٣: ٢-٣).

وهي أطوع اللغات للوزن والقافية، فما من لفظة إلا وجدت لها أخوات كثيرات من وزنها وقافيتها، وكثير من مفرداتها أنسب للمعنى، وأبين للفكر، وأطوع لإظهار أعمق التأثرات، من مثل كلمة (حق) و (حب) و (مرحباً) كما أن حركات ألفاظها يكسبها جمالا ورشاقة وموسيقى (الشنطي، ١٩٦٧: ٣١).

وأضاف إلى هذه الخصائص ما لاحظه من قدم اللغة العربية، وظنه أنها أول لغة نطق بها الإنسان، مستنبطاً ذلك من بعض ألفاظها، وأنها لغة قوة، مدللا بأمثلة من أساليبها من مثل (لا يشق له غبار) و (جاذبه حبل الفخر) وغيرها كما رأى ثراء العربية بألفاظ الحزن والبكاء، حتى ظن أنها أغنى اللغات في هذا الباب.

واعتقد السكاكيني بأن اللغة آلة، لا غاية في ذاتها، ولا هدفا، وهي وعاء للفكر، ووسيلة لتأدية المعاني بسهولة ويسر، فكما أراد للأدب أن يكون متجدداً مع روح العصر ومقتضيات الزمن، أراد للغة أن تكون وسيلة حية متطورة لتصبح لغة العلم الحديث والحياة الجديدة، فأرادها أن تسترد نموها المطرد وتساير النهضات المتجددة وأن تكون على اتساع ممتد، قادرة على تأدية مهمتها لطالب العلم، وأراد أن تكون هي لغة الحاضر ولغة المستقبل، كما كانت لغة الماضي(الشنطي، ١٩٦٧: ٣١-٣٢). وأراد السكاكيني أن نعود إلى ألفاظ القدماء العلمية والفنية، وأن نحسن بعثها واستثمارها واستعمالها، وأن نطبع على غرار السابقين، فنلجأ إلى الارتجال والوضع، واصطناع الألفاظ الجديدة، والتوليد بالاشتقاق، أو المجاز أو الكناية، أو التعريب، والصقل، أو النحت (الشنطي، ١٩٦٧: ٣٢).

وقد نظر السكاكيني إلى العربية نظرة إخلاص، فيرى حاجتها إلى أن تخلق خلقا جديداً يقرب منالها من طلابها، وان تكون على جانب كبير من السهولة لتكتمل حيويتها، وذهب إلى أن تطور اللغات سار من قلة الألفاظ إلى كثرتها حتى.

كان يقاس رقي اللغة بكثرة ألفاظها، وفي هذا الدور عنى بوضع المعاجم والقواميس ولكن لاح له أن اللغات تسير الآن من الكثرة إلى القلة، وخشي أن يأتي الزمان الذي تلفظ فيه هذه اللغات ويتم التفاهم بين بني الإنسان بالصمت (الشنطي، ١٩٦٧: ٣٣).

وكان السكاكيني يعد كثرة ألفاظ اللغة العربية من مواطن الصعوبة إذ وجد أن هناك معاني لها أكثر من لفظة واحدة، كما قيل في كلمة سيف، وهذا ما يجعل الدارس يظن أن اللغة العربية هي مجموعة لغات لقبائل متعددة، لا لغة أمة واحدة، وهذا الأمر نفسه يجعلها على جانب من الصعوبة عظيم (الشنطي، ١٩٦٧: ٣٣).

((ورأى أنه إن وجدت لغات تشكو من قلة ألفاظها، فإن العربية تشكو من كثرتها؛ وذلك لأنها لا تزال في دور الصيرورة، ولا بد لها أن تستمر في التطور حتى تراعي النسبة بين اللفظ والمعنى، ولم يرض للعربية أن تترك ليتم نضجها في بطء وخفاء بحكم ناموس التطور وبمرور الزمن فحسب، جريا على مذهب النشوء والارتقاء وتنازع البقاء وإنما أراد العلماء اللغة أن يبذلوا من الجهود حتى يعجلوا في إنضاجها)).

ومرد ذلك عنده إلى أمرين:

الأول: أن نهمل ما زاد عن حاجتنا ليموت، وضرب الأمثال الكثيرة لهذه المترادفات التي لفظت الأنفاس، لأننا وجدنا أنفسنا في غنى عنها.

الثاني: أن نستثمر هذه الألفاظ كما استثمرنا كثيرا منها، وإلا كانت هذه الزيادة عبثا، إذ وجدنا حدوداً تميز بين السخط والغضب، وبين آل، وأهل، وبين قرأ وتلا، وبين النفر، والرهط، وغيرها(الشنطي، ١٩٦٧: ٣٣-٣٤).

ولا يخطر بالبال أن السكاكيني كان يدعوا إلى تقييد ألفاظ اللغة، والتقليل من ثروتها، فقد حارب أشد المحاربة الدعوة إلى هذه النزعة، وكان يعجب من الدعوة القائلة إن ألفاظ اللغة كثيرة ولا بد من تقييد عددها، والاكتفاء منها بمائتين (الشنطي، ١٩٦٧: ٣٣)، أو بثلاث مئة، وكأن دعوة السكاكيني لا تعدوا أن تكون مطالبة بمسح شامل لهذه الألفاظ، وتنسيق لها وإنضاجها واستثمارها(الشنطي، ١٩٦٧: ٣٤).

ونعي على اللغة العربية بعدها عن تطبيقها على ما وصل إليه علم اللغات الحديث الذي أمتلك من الرسائل ما يمتلكه السابقون من مثل معرفة لغات متعددة وتحليلها ومقابلة بعضها البعض، للوصول إلى أسرارها وإدراك أصولها وخصائصها.

وقد كان علماء اللغة الأقدمون ينظرون إلى اللغة نظرة تقليدية، ويقيسون معرفتهم بها بما وعوا في صدورهم من ألفاظها وشواردها، حتى غدت أحكامهم وقواعدهم فيها صناعة لا علماً، ولم ينكر السكاكيني محاولة ابن جني في كتابيه (الخصائص في اللغة) و (سر الفصاحة) ولكن أبحاثه فيهما ظلت في عهد طفولتها)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٣٤-٣٥) (السكاكيني ٢٠٠٣: ٥).

المبحث الثاني

في النحو والصرف

لعل من أكثر الموضوعات اللغوية التي استرعت نظر السكاكيني إلى الدرس بغية التجديد والإصلاح، باب النحو؛ وذلك لأنه لمس بنفسه مدى العسر الذي يواجه طلاب هذا العلم ومدى ما يفعله من تأثير سيء في عقولهم، ونقل السكاكيني عن قدماء النحاة تعريفهم للنحو وبيان وظيفته، على أنه من الإعراب والبناء (الشنطي، ١٩٦٧: ٣٧)، ((فالنحو هو علم يصف طرق الاستعمال اللغوي في مرحلة خاصة من مراحل تاريخ اللغة المدروسة)) (يعقوب، ١٩٩٩: ٨٥) ، وبهذا لم يخرج إلى ما وصل اليه علم اللغات الحديث حول الموضوعات التي يدور عليها هذا العلم وبيان وظائفه، وهي أربع: أولها: الاختيار (selection) والذي يعني باختيار الصيغ المعينة الموافقة للموقف اللغوي المقصود ثانيها: نظام الجملة word – order، وهو البحث في قوانين تأليف الكلام، وترتيب الكلمات في الجملة والعبارة.. ثالثها: المطابقة concord، التي تهتم ببحث قوانين مواءمة الوحدات المكونة للجملة وصيغها المختلفة. رابعها: الإعراب، إذا كانت اللغة معربة، وهو يدل على نوع العلاقات القائمة بين أجزاء الكلام مما يرتبط بالمعنى ((ومهما يكن مفهوم النحو عند السكاكيني، فإنه أحس بخروج الكثيرين عن أهداف العلم وفوائده، التي تتلخص في التحرر من الخطأ، وتؤدي إلى سلامة العبارة

العربية، وصيانتها من اللحن والزلل، وإقامة ملكة هذه اللغة، وأحس بضرورة وصف علاج حاسم لهذا المرض المستشري، وعلى طريقته العلمية راح يدرس نشأة الحركات الإعرابية في اللغة العربية، والأدوار التي تدرج فيها هذا (الشنطي، ١٩٦٧: ٣٧-٣٨) الإعراب راجعاً في تطورها إلى جذورها الأولى، وذلك لتشخيص الداء، قبل أن يقدم على وصف الدواء)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٣٨). ووجد أن التعرف على أدلة البيان التي تتميز بها وظيفة الكلمة في الجملة العربية قد تدرجت تدريجاً زمنياً على مراحل ثلاث: الأولى منها بالقرينة المعنوية، نحو (فهم موسى المعنى) أو (فهم المعنى موسى). والثانية بالترتيب نحو (سبق أخي غلامي)، لاحتمال أحدهما أن يكون سابقا أو مسبوقاً. والثالثة بالإعراب، نحو (ضرب زيد عمراً)، أو (ضرب عمراً زيد). ورأى أن هذه المراحل لابد أن تكون قد مرت على أدوار مختلفة، وأقدم هذه الأدلة – عنده هي القرينة، فقد كان اعتماد اللغة في بيان المعنى عليها وحدها، وتصور السكاكيني اللغة في هذه المرحلة لا تجري على شيء من الترتيب أو الإعراب فكانوا يقدمون أو يؤخرون، ويرفضون أو ينصبون، على غير هدى ولا اتفاق ووجد أن القرينة كانت أوسع من مفهومها الحالي، فلابد من قرائن كثيرة يستدلون بها على المعنى. وفصل في هذه القرائن تفصيلا طويلا، فنذكر منها (طبقة الصوت) وصفته، وكذلك (تكرر الألفاظ) للتأكيد مع وجود نبرة خاصة في اللفظة الثانية حتى تؤكد أختها الأولى ودلل على أن هيئة الصوت قد تقلب المعنى إلى ضده، ومن هذه القرائن (الحال) التي يكون عليها الناطق أو القارئ من رضى أو غضب، من فرح أو حزن، من هزل أو جد، وعد من القرائن: (الإشارات بأعضاء الجسم) وبغيرها كالألوان والأنوار، فمن الناس من إذا قال: (هذا أمر عجيب)، رفع حاجبيه، وإذا قال: (نام فلان)، أغمض عينيه وجعل يغط، ويعد صاحبنا لغة الاشارات لغة متكاملة، فيها أحيانا مبالغة وثرثرة، ويعجب من خلو معاجمنا قديمها وحديثها من هذه اللغة (الشنطي، ١٩٦٧: ٣٨-٣٩). أما الترتيب في العبارة العربية.. من ذلك تقديم الصفة على الموصوف، فنقول (صريح الرأي) بجانب قولنا (الرأي الصريح)، إذ أخذ هذا الترتيب يتضح أكثر فأكثر، ويلزم صورة معلومة

كذكر الفاعل قبل المفعول، إذ لا بد من أتباع هذا الترتيب إذا خلت العبارة من قرينة معنوية أو قرينة أعرابية، ويستنتج السكاكيني من دراسته هذه، أن الأدوار التي مرت على الترتيب ثلاث: الدور المشوش لغير قصد اعتمادا على القرينة، والدور المرتب، والدور المشوش لأغراض بيانية اعتمادا على الأعراب والقرينة (الشنطي، ١٩٦٧: ٣٩-٤٠). أما الأعراب، فكان الغرض منه أول الأمر تزيين الكلام أو لضرورة شعرية، ولاحظ السكاكيني أن الإعراب يسقط عند الوقف، فتعود الكلمة كما كانت دون أعراب، لولا أنه انتقل من تزيين الكلام إلى بيان وظيفة الكلمة في الجملة فأصبح من مقومات اللغة العربية وخصائصها (الشنطي، ١٩٦٧: ٤٠). فبالإعراب تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين، ففي اللغة هو مصدر (أعربت)، وأعربت عن الشيء إذا أبنته، أو أفصحت أو أوضحت عنه، أما في الاصطلاح فمعناه الإبانة عن المعاني بالألفاظ، وتغير العلامة التي في أخر اللفظ بسبب تغير العوامل الداخلية عليه (يعقوب، ١٩٩٩: ١٢٨-١٢٩)، ولكنه يرى أن الإعراب لم يتم نضجه، والأصل عنده أن يكون على وجه واحد، فالفاعل لا يجوز فيه إلا الرفع، والمفعول به لا يجوز فيه إلا النصب والمخفوض لا يجوز فيه إلا الخفض، ولكننا نلقى حالات يجوز فيها وجهان، وحالات يجوز فيها ثلاثة، وبعضها يصل إلى عشرة (الشنطي، ١٩٦٧: ٤١). ((ومن خلال مناقشته لقول النحاة أن للاسم ثلاث حالات: الرفع والنصب والخفض، وصل إلى أن هناك حالة رابعة، هي بين بين، غير أن علامات الإعراب تقف قاصرة دون التعبير عنها تعبيرا خاصة بها، فمثل لذلك بأدلة من مزيدات الفعل على أوزان المشاركة والمطاوعة، فرأى مثلا في (ضارب زيد. عمراً) أن كلا الاسمين فاعل ومفعول به في وقت واحد، وهذه المشاركة واضحة من الوزن لا من علامة الإعراب. فكيف يمكن الإعراب إذن أن يودي علامة الفعالية والمفعولية لكلا الاسمين في الوقت نفسه؟ وواضح من هذا كله أنه كان يرى من آفات النحو تعدد الآراء في المسألة الواحدة، واختلاف الأحكام فيها مما سبب الاضطراب والتعارض، وأنه كان يميل إلى الأخذ بالمشهور من الأعراب، وتحكيم القاعدة العامة، والاقتصار من المذاهب على أشيعها،

وهجر الشاذ منها)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٤١) ولعل ألصق أبحاثه بفكرة اقتصاره على أشيع المذاهب، ما عبر فيه عن إحساسه بالضيق من أثر ما وجد من التشويش كأنه أصل من أصول اللغة، ومن هذا التشويش ما يقع في الإفراد والتثنية والجمع، كاستعمالنا المفرد بدل المثنى من مثل قولنا: (لبس الجورب)، بدل الجوربين، و (لبس نعله) بدل نعلين وقد نستعمل المثنى بدل المفرد والمفرد بدل الجمع، نحو (باتوا سامراً) أي متسامرين، وقد نستعمل المفرد للواحد والواحدة والجمع، مثل: هو صديق وهي صديق، وهم صديق، ومن آثار التشويش ما يقع في التذكير والتأنيث فتذكر الصفة مع المؤنث، فيقال) حمى صالب)، في حين يقال (حمى نائبة) ويقال (الجارية الناشئ) و (المرأة البادن)، ويتساءل عما إذا كانت الصفات كلها للمذكر ثم انقسمت إلى مذكر ومؤنث، أم كان هناك تذكير وتأنيث ثم مالت اللغة إلى التذكير (الشنطي، ١٩٦٧: ٤١-٤٢)؟. ((وأمتد هذا التشويش إلى مباحث الصرف من أوزان الفعل، فقد يجيء بمعنى واحد المزيد بمعنى المجرد من مثل: هدر وأهدر، وحب وأحب ويجيء فعل وتفعل: بدل وتبدل، ودنى وتدني، ويجيء فعل وافتعل بمعنى واحد في: حل واحتل، وغفر وأغتفر، وقد يجيء المزيد من وزن بمعنى المزيد من وزن أخر في الفعل نفسه، كما في: تفعل واستفعل من مثل: تعجل واستعجل، وتأخر واستأخر، وقد يجيء فعل وتقل وتفاعل وافتعل واستفعل بمعنى واحد نحو: مسك وتمسك وتماسك وأمتسك واستمسك، وينتهي إلى أن التشويش في المزيدات كثير فلا يخلو مزيد من أن يكون بمعنى المجرد، ولا يخلو مزيد من أن يكون بمعنى مزيد أخر من الفعل نفسه)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٤٢-٤٣). وقد ذهب جمهور النحاة إلى اعتبار الفعل الماضي المجرد الثلاثي أو الرباعي هو الأصل الذي اشتقت منه الأفعال المزيدة التي تأتي على هذه الأوزان (يعقوب، ١٩٩٩: ١٩٧) (الحملاوي، ٢٠٠٦: ٣٨-٤٣)، إن السكاكيني لا يقبل العبث في أصول اللغة، ولا يريد فيها شذوذا ولا انحرافاً يخرجها عن طريق القياس، وكأنه يرى إشاعة القياس وإطلاقه إلى أبعد مدى. ويود للغة أن تخضع لقوانينه خضوعاً صارماً، ولا يعجبه أن نضحي بأصول اللغة

وقياسها، في سبيل ما تسمى بالمشاكلة أو المزاوجة، أو غير ذلك كقولهم (إذا تغلب فأخلب) فأن الأصل في فعل (خلب) أن يكون من باب (نصر) ولكنهم كسروه لمشاكلة (تغلب)، وكقولهم: (إني لآتية الغدايا والعشايا) والغداة لا تجمع على غدايا، وإنما فعلوا ذلك لمشاكلة العشايا، وكقولهم (الهرج والمرج) بتسكين الراء في المرج للمزاوجة(الشنطي، ١٩٦٧: ٤٣). وللسكاكيني دراسة في الأفعال، لأنها في العربية من أهم أبوابها، وقرر أن صيغة الفعل العربي مأخوذة من المصدر، وأنه ليس إلا صورة من صور المصادر القديمة الأولى. وحاول أن يوجد بعض مجموعات من أوزان المصادر لكل وزن معنى عام، فالمصدر من المضاعف على وزن (جر) تراعي فيه حكاية الصوت أو حكاية الحركة، أو حكاية صفة الشيء، أما المصدر من الأجوف على وزن (قام) فأكثر ما يقصد به حكاية الحركة(الشنطي، ١٩٦٧: ٤٣-٤٤). ((ورأى أن الضمائر في العربية في أصلها منفصلة كما هو ص الحال في اللغات الأجنبية، وبمرور الزمن نحت منها لطولها الضمائر المتصلة)) (الشنطي، ١٩٦٧: ١١) .

أما أزمان الأفعال.. فيرى أنها قد مرت باستعمال صيغة بدل أخرى ولا يجد السكاكيني في العربية علامة خاصة بالزمان، وعلامة خاصة بالفاعل على نحو ما هو موجود في اللغة الإنكليزية، في مثل (He walked) فلفظة (He) علامة للفاعل، ولفظة (walk) صيغة للفعل، ولفظة (ed) علامة الزمان ذلك لأن العرب استخدموا علامة الفاعل للدلالة على الفاعل بلفظها وعلى الزمان بموضعها، فإذا أرادوا المضي وصفوا علامة الفاعل في أخر الفعل نحو (ضربت) وإذا أرادوا الحاضر وضعوا علامة الفاعل في أوله، نحو (أضرب) وإذا أرادوا المستقبل استخدموا صورة الحاضر مع قرائن أخرى كالسين وسوف وغيرهما (الشنطي، ١٩٦٧: ٤٤). ولاحظ السكاكيني أن الأفعال الثلاثية في العربية مرت على دورين، الأول منهما هو الذي كانت فيه صيغتا الماضي والمضارع متشابهتين، والثاني هو الدور الذي وقع فيه الاختلاف بينهما، وافترض أن لو بقيت اللغة مطلقة على حالها لأتى دور ثالث يختص فيه كل باب من أبواب أوزان الفعل بمعنى أو معنيين أو أكثر لا يجيء عليه إلا أفعال خاصة، فإننا نجد أن الأفعال

التي تدل على عيب في الخلقة لا تجيء إلا من باب (علم يعلم) مثل خرس يخرس، والأفعال التي تدل الغرائز يجيء أكثرها على باب (كرم يكرم) مثل شرف يشرف، ويخلص السكاكيني إلى أن التدوين وقف في وجه الدور الثالث(الشنطي، ١٩٦٧: ٤٤-٤٥). وتتبع السكاكيني بشيء من الاهتمام تاريخ علم النحو والصرف، فرأى أن العناية بقوانين اللغة مذهب قديم عني به اليونان والرومان والسريان، وعن هؤلاء أخذ المتأخرون هذا العلم تقليداً أو عدوى، فالعرب أخذوه عن السريان في العراق، والأفرنج اقتبسوا مصطلحات اللغتين اليونانية واللأتينية، فبقيت غريبة عن أفهام طلابهم إلى اليوم، ويرى أن الصعوبة تكمن في أخذ نحو لغة ما وتطبيقه على لغة أخرى، كما يرى أن تعلق المتأخرين من عرب وإفرنج – بقوانين لغة السريان والكلدان واليونان واللاتين، دون حاجة إليها، هو سبب هذا الداء (الشنطي، ١٩٦٧: ٤٥-٤٦) إلى (وحدة القاعدة) كان سبب رغبتهم في تسهيل الأمر، لكنهم صعبوه، وهو لا يتردد في حل هذا التعقيد، فدعا إلى (تعدد القاعدة) بمعنى أن نضع قاعدة لكل من أنواع الكلمة أو المجموعة، لأنه أسهل على الطالب، أن نضع قاعدة للفعل الصحيح، وأخرى للمضاعف، وثالثة للناقص، ورابعة للأجوف، وقاعدة تشمل جمع (قبيلة) و (رسالة) على (قبائل) و(رسائل) وقاعدة أخرى تشمل ما يندرج تحت (قضية) و(مطية) و(خطيئة) التي تجمع على (قضايا) و(مطايا) و(خطايا) دون اللجوء إلى الإعلال والإدغام، والقلب والإبدال، وواضح هنا أن السكاكيني يعني أن النحو والصرف أداتان واصفتان للغة، لذلك أراد تخليصها من التقليل والمنطق اللذين يعدان من أكبر أمراضها (الشنطي، ١٩٦٧: ٤٦-٤٨) (السكاكيني ٢٠٠٣: ١١). ((وتعقب صاحبنا النحاة في مادة النحو ذاتها، فطرق مسائل نحوية متعددة وافقهم في بعضها فأثنى عليهم فيها، وخالفهم في بعض آخر، فأستماحهم عفوا فهم يعتبرون الألف والواو والياء حروفا، أما هو فالصحيح عنده أن الألف حركة طويلة من الفتحة، كما يتضح في (كتاب وسماء ومادة) ويرى أن الأسماء الخمسة من المعربات بالحركات القصيرة أو الطويلة، لا بالحروف مستدلاً على أن اللغة العربية القديمة ربما كانت تعرب بالواو والألف والياء أسوة باللغة النبطية، ثم

استبدلت بالحركات الطويلة هذه حركات قصيرة في جميع الأسماء تخفيفاً، إلا ما يقي واضحاً في بعض حالات الأسماء الخمسة فقد عدة أثر باقيا من ذلك العهد)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٤٨-٤٩). وهو يوافق النحاة القدماء فيما وصلوا إليه في صفة علامات الإعراب فالضم هو أقوى الحركات وأفخمها، والفتح أخفها، والخفض أثقلها، ويربط بين كثرة هذه الحركات أو قلتها في اللغة، وبين البيئة الطبيعة العامة التي تنشا فيها ويقرر أن النحاة لم يوفقوا في اختيار ألقاب الإعراب، لاسيما لفظة (نصب) (الشنطي، ١٩٦٧: ٤٩).

ويناقش النحاة فيما قالوه من الحالات الإعرابية للاسم، فهو عندهم إما (عمدة) وحالتها الرفع، وإما (فضلة) وحالتها النصب، وإما (مشترك) بينهما وحالتها الخفض، لكنه يخالفهم في أن في الكلام فضله، لأن الفضلة لغو يمكن الاستغناء عنه، والحقيقة أن كل جزء من الكلام عمدة لا يستغنى عنه، سواء في ذلك الأسماء والأفعال والحروف على اختلاف حالاتها، لاحتياج العبارة إلى كل جزء من أجزائها لإتمام المراد منها، وينتهي بعد تحليل طويل إلى أن الاسم يرفع لأنه مهم أو قوي، وينصب لأنه ضعيف أو كثير الدوران على اللسان، وهاتان هما حالتا الاسم في الأصل، ويرجح أن حالة الاسم في الخفض حالة طارئة على اللغة أو هي أثر من أثار التشويش الإعرابي، لأنه لا حاجة إليها فضلا عن أن الخفض تقيل مستبشع، ولولا القليل من حالات لزال الخفض من الاسم كما زال من الفعل المضارع (السكاكيني ٢٠٠٣: ١٣) (الشنطي، ١٩٦٧: ٤٩) إلا تفاصيل العدد ولم يفت السكاكيني ما لقي في النحو من تعقيد بسبب تعدد التفاصيل، وأخذ يعالج بعض مشكلاته، فلما تناول مشكلة العدد في اللغة العربية، وجد له من التفاصيل ما تبرم بها كثيرون من خطباء وكتاب وشعراء وأساتذة ومذيعين ولعل الطريف أن نذكر ما كان يتمثل به من قول أحد الشعراء الظرفاء: في النحو لا يقهرني وحصر هذه التفاصيل، فوجدها سبع عشرة حالة، وسرد لنا الطرق التي تجنب الوقوع في خطا العدد، فمنهم من يلجا إلى العامية، ومنهم من يلجا إلى لفظة (كثير) أو (قليل) هربا من العدد نفسه، ومنهم من يكتب أرقام العدد لا كلماته ومنهم من يلجا إلى

أصابع اليد، ومنهم من يعرف بعض أحكام العدد المفرد، ولكنه لا يعرف أحكام العدد المركب، فيلجا إلى العطف كأن يقول: بنت سبع وأربع وثلاث. ويسجل لنا ملحوظا دقيقا يستحق الذكر، ذلك أن منازل الأعداد تبدأ من اليمين إلى اليسار، فنقول عندي خمسة عشر كتابا، ورأيت من الطلاب ستة وعشرين ومئة. وهذا هو الترتيب الطبيعي، ولكننا خالفنا هذه القاعدة منذ زمن بعيد، وبدأنا في الأعداد من اليمين إلى اليسار، فنقول: سنة ألف وتسع مئة واثنتين وخمسين(الشنطي، ١٩٦٧: ٥٠). وتناول السكاكيني باب الاشتغال، ويرى أن النحاة لم يوفقوا في فتح هذا الباب لان أكثر أحكامه لا تخلو من تكلف التأويل والتفسير، والغرض والتقدير، مما لا يجيزه سبب معقول ولا يسوغه استعمال، ورأى أيضا انه باب مصنوع مما يجعلنا نعيد النظر في وجوده (الشنطي، ١٩٦٧: ٥٠-٥١) (السكاكيني ٢٠٠٣: ١٤)، وينبه السكاكيني إلى الحياة الاجتماعية السائدة في عصر النحاة، وأثرها في أحكامهم وقوانينهم، وتوجه بالنقد الشديد إليهم من هذه الناحية، فالأخفش يخص النساء بالندبة لأنهن أضعف عن احتمال المصائب، أما صاحبنا فلا يذهب هذا المذهب، لان المرأة في رأيه أقدر على احتمال المصائب، وتوجه بنقد أشد إلى هؤلاء النحاة لتغليبهم المذكر على المؤنث كإطلاق لفظة الأبوين على الأب والأم، بحجة أن المذكر أفضل من المؤنث، ويعزو أسباب ذلك إلى أنهم كانوا رجالا، وأن المرأة في زمانهم كانت موضع احتقار الرجل (الشنطي، ١٩٦٧: ٥١). ولعله لو قال إن المجتمع كان ذكوريا لكان أدق من الحكم باحتقار الرجل المرأة فلا ندخل في سجال تحقيق عدم صحة ما ذهب إليه. ((وامتد بصره إلى المصلحات النحوية والصرفية، فأعتز بها، لأنها مأخوذة من اللغة العربية ذاتها، لا مستعارة من غيرها، كما هو الحال في اللغات الأجنبية، واستثنى من ذلك لفظة (نحو) لأنه قيل أنها دخيلة، بيد أنه رأى أن بعض هذه المصطلحات مأخوذة من مصطلحات المناطقة، كمصطلحي (موضوع) و (محمول) مما يستغلق فهمهما على طلاب المرحلة الابتدائية وغيرهم، ويقترح بديلا منهما مصطلحي (محدث عنه) و (حديث) وبعضها لا يخلو في اعتقاده من غموض، يحتاج الطالب إلى تفسيرها فليس في اصطلاح (فعل مضارع) ولا

في (مفعول مطلق) ما يحمل من الدلالة الواضحة على تفسيرها بنفسها)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٥١-٥٢). ((وينقد مصطلح (الضمائر) الذي أخذ به النحاة، ويعجبه بديلا منه مصطلح (الكنايات) جرياً على تسمية الكوفيين له؛ لأنه يكنى بها عن الأسماء، وهو يطابق في معناه الفرنج)) ولقي حالات لها أكثر من مصطلح واحد، كمصطلح (جواب الشرط) أو (جزائه) ويؤثر السكاكيني على اختيار المصطلح الثاني؛ لأنه يحمل في ذاته من الدلالة أكثر مما يحمله المصطلح الأول، فجواب الشرط بعيد عن مألوف الطلاب، لأنه الجواب يقتضي أن يكون هناك سؤال لا شرط.. وخير المصطلحات عنده هي الموجزة، والتي تحمل دلالتها، والبعيدة عن الإبهام والحاجة إلى الشرح والتفسير فيرى ألا يقيد الطالب بمصطلحات نحوية أو صرفية بعينها، يحفظها ولا يحيد عنها، إذ يمكن للطالب أن يسمي الفاعل مثلا (الراكب) أو (الآكل) أو (الشارب) ويسمي المفعول كذلك (المفتوح) أو (المشروب) أو (المأكول) إلى غير ذلك من الألفاظ التي تناسب المقام ((وهو يطالب لتقريب النحو من نفوس الطلاب أن يقتصر من قوانينه على قدر يقتضيه الاستعمال لإقامة الملكة في القراءة والخطابة والكتابة، وعلى ما تدعوا إليه الحاجة لتقويم اللسان والقلم، ومثل ذلك (بالمبتدأ والخبر) ففيه عند النحاة – من التفاصيل ما يخرج عن حاجة الطلاب وغير الطلاب، دون فائدة ترجى منها، فيهما)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٥٢). ويكفي أن يعرف ما المبتدأ وما الخبر وأنهما مرفوعان، ثم عمل النواسخ (السكاكيني ٢٠٠٣: ١٥) (الشنطي، ١٩٦٧: ٥٢) ((ولعل ما كان يعزيه أن النحو لم يكن صعب المراس على طلاب عصره فحسب بل كان على مثل هذه الصعوبة عند علماء النحو القدامى أنفسهم، فالخليل بن أحمد (ت١٧٠هـ) لا يحسن باب النداء، وسيبويه (ت ١٨٠ هـ) نفسه مات وهولا يدري حد التعجب وكذلك الكسائي (ت ١٨٩ هـ) مات وهو لا يحسن (نعم) و (بئس). وكذلك الفراء (ت٢٠٧ هـ) قضى نحبه وفي نفسه شيء من (حتى). وأمضى ابن خالويه (ت ٩٨٠هـ) خمسين سنة يتعلم دون أن يقيم به لسانه، ولعل إحساس القدامى بصعوبة النحو وتعدد تفاصيله هو الذي حدا بهم إلى وضع قوانينه في أراجيز؛ لان الشعر أعلق بالذاكرة من النثر))

(السكاكيني ٢٠٠٣: ٥٣) (ابن النديم ١٩٧٨: ٦٤، ٧٦، ٩٨، ٩٩) (يعقوب، ١٩٩٩: ١٧٤). ولكن السكاكيني لم يأل جهداً لتشويق طلابه إلى هذا العلم، فأفضى عليهم من روحه الفكهة الشيء الكثير، وأولع بجمع نوادر النحاة ونكاتهم النحوية والصرفية ليدخل البهجة إلى نفوسهم، فيقبلوا على هذا العلم العسر، وأخذ يدرس أساليب تعليم القواعد وتاريخ مراحلها على مر العصور، فرأى على أساليب ثلاثة: أولها: الأسلوب الأندلسي، الذي يجمع بين القاعدة والشواهد، وهو ما جرى عليه (سيبويه) في كتابه، وهو نوعان: من القاعدة إلى المثال، وهو على وشك أن يبطل استعماله، ومن المثال إلى القاعدة، وهو كثير الشيوع. وثانيها: الأسلوب المغربي، الشائع في المغرب وأفريقية، وهو يقتصر على القواعد دون الشواهد والذي بين فيه (أبن خلدون) أنه لا يقوم اللسان من الاعوجاج واللحن. وأخر الأساليب: ما يسميه السكاكيني بالأسلوب الخلدوني، الذي يقتصر على الشواهد دون القاعدة، فيسار فيه من الشاهد أو المثال إلى الاستعمال، ويقاس الكلام بعضه على بعض وليس على أحكام مجردة فيقول الطالب (قال الرجل) بالضم، قياسا على (قال النبي) ويقول (النهار جميل) برفع الاثنين، قياسا على (العلم زين) وإذا أخطأ أرشدناه، واستراح السكاكيني إلى الأسلوب الأخير، وتبناه وراح يدعو إليه، ويلح فيه في كل مجال (السكاكيني ٢٠٠٣: ٥٣-٥٥). وطالب بإلغاء القواعد بجملتها إلغاء تاماً، فلا درس خاص بها، ولا تعلم للطالب لذاتها، إذ يمكنه أن يتعلم اللغة بالسماع والتقليد والاستعمال، دون تعلم قواعدها كما يتعلم الطفل لغة أمه، وكما يتعلم كيف يمشي بالتقليد والمران، ولم يكف السكاكيني بهذه البراهين، فقد أراد يكسب المعركة، ملقياً بكل قواه وأسلحته فيها فرجع إلى التراث العربي قبل التدوين، حيث كان العرب يحسنون النطق الصحيح على غير علم بالقواعد أو تعلم لها فوجد من الشعراء والخطباء المطبوعين من تبغوا في فتهم قبل وضع علم النحو ذاته، ودون أن يعرف بعضهم القراءة والكتابة، من مثل (المتلمس والفرزدق وذي الرمة) وبأقوال هؤلاء وغيرهم استقرا النحاة أحكام النحو، وحال هؤلاء كحال (أفلاطون) الذي لم يكن يعرف من قواعد اللغة اليونانية شيئا، وكذلك (شكسبير) الذي لم يكن يعرف من قواعد اللغة الإنكليزية شيئا،

ومن المحدثين نجد (محمود سامي البارودي) الذي هو من أسرة شركسية، قد تعلم العربية على الأسلوب الخلدوني لاشك أن السكاكيني كان يدرك الهوة الواسعة التي تفصل بين العربية الفصحى والعامية، فلم يفته أن يضع لدعوته هذه شروطا حتى تضمن بها إقامة الملكة العربية دون تعلم القواعد، وأول هذه الشروط: أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة التعليم في كل درس يؤديه المعلم وفي كل المواد، وأن لا يتكأ المعلم في حديثه إلى الطلاب على العامية، فالطالب أسرع إلى تقليد معلمه منه إلى تقليد لغة كتابه، لأن اللغة تؤخذ بالسماع والاستعمال دون أي شيء أخر، وثاني هذه الشروط أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة التخاطب؛ لأن أحسن الطرق لاكتساب ملكة اللغة هي مشافهة أهلها ومعايشتهم ولم يقف السكاكيني فيما دعا إليه من إلغاء تعلم القواعد إلى الحد النظري بل مد بصره إلى الناحية التطبيقية، وأعطى أمثلة حية لما أراد وقدم نماذج من حلوله ورأى أن التلميذ حين يسمع من معلمه: قم، أقعد افتح الباب، اقرأ السطر الأول فأنه يتعلم فعل الأمر من قام وقعد وفتح وقرأ ويتعلم أن ينصب المفعول به في (افتح الكتاب)، ولن يضيره شيء إذا لم يعرف القاعدة وأحكامها، وإنما يفيده أن يسمع غيره يستعمل اللغة على الوجه الصحيح فيقلده، هذا. هو الحل الحاسم الذي (الشنطي، ١٩٦٧: ٥٤-٥٦) (الحمداني، وأحمد ، د. ت: ٥٠-٥١). ارتضاه السكاكيني لنحو اللغة العربية وهو نفسه الذي دعاه إلى أن يعارض سياسة التيسير والتبسيط في النحو والصرف؛ لأنها لا تحل المشكلة من جذورها، ويرى أن لجان التيسير مهما تتابعت ويسرت، فإنها ستجد الأمر بعد حين في حاجة إلى تيسير جديد، وقد يؤخذ عليه في هذا المجال صعوبة تطبيق دعوته بشروطها، أو أنها ليست ممكنة التنفيذ في وقتنا هذا، ما دامت اللغة الفصحى ليست هي لغة التخاطب، في البيت والشارع، وإنما يصلح اقتراحه حينما نوفق إلى خلق الأجيال المثقفة من معلمين وغير معلمين يحسنون تكلم اللغة العربية الصحيحة، أو حين نرفع المستوى الثقافي والفكري بين الناس، فيؤخذ الأبناء عن آبائهم ومعلميهم اللغة الفصحى، سماعا وتقليدا واستعمالا بدون قواعد، فتصبح ملكة وسليقة، وإن شدة معارضة المحافظين

السلفيين –من المتخصصين– لهذا الاسلوب جعله يقترح أسلوبا وسطا لتعليم القواعد وهو يسار فيه من المثال إلى القاعدة إلى الاستعمال فجاء بموضوعات نحوية يمكن أن تطبق في دروس القراءة، سواء أعطي بها قاعدة أو لم تعط، من مثل تحويل عبارات من المذكر إلى المؤنث، أو من المتكلم إلى المخاطب أو الغائب، أو من الحاضر إلى الماضي، أو من المفرد إلى المثني أو الجمع، أومن المثبت إلى النفي، أو من المعلوم إلى المجهول، فيحول المعلم القطعة ويقلده طلابه، وكان يتبع الاسلوب نفسه. طلابه معلما ومفتشا(الشنطي، ١٩٦٧: ٥٧–٥٩). كما وجد أبوابا في النحو والصرف يمكن أن توضع جداول أو نماذج، يكلف الطلاب أن يحفظوها، ويقيسوا غيرها عليها، جريا على الطريقة الفرنسية، إذ إن رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١–١٨٧٣) وضع رسالة في النحو العربي من مئة وثمانين صفحة سماها (التحفة المكتبية في تقريب اللغة العربية) درج فيها على طريقة الجداول، وقد ضمن رسالته هذه خمسة وأربعين جدولا، وهو في الغالب متأثر بما اطلع من طريقة الفرنسيين، وبهذا الأسلوب تحل مشكلات عديدة لا زال الطالب يعاني، فبدلا من يعلم تفاصيل حالات العدد وأحكامها المختلفة شرحا وضع لهذا الباب خمسة جداول على النمط الاتي:

ولد، ولدان، ثلاثة أولاد، إلى الثلاثين. –بنت، بنتان، ثلاثة بنات، إلى الثلاثين ٣– الولد الأول، الولد الثاني، إلى الثلاثين ٤– البنت الأولى، البنت الثانية، إلى الثلاثين. ٥– الثلاثة كتب، ثلاثة الكتب، الثلاثة كتابا، الخمسة عشر كتابا. ويكلف الطلاب أن يحفظوها ويكرروها، ويقيسوا غيرها عليها، وذهب إلى أن هذا الأسلوب يمكن أن يمتد حتى يشمل أبوابا كثيرة من أبواب اللغة وقوانينها كتصريف الأفعال على اختلاف أنواعها مع الضمائر ماضياً ومضارعاً وأمراً وباب الاشتقاق من كل نوع من أنواع الفعل، وباب الممنوعات من الصرف (الشنطي، ١٩٦٧: ٥٩–٦٠)، وقد وضع كتابا في النحو سماه (وعليه قس) طبع في القدس سنة ١٩٤٣ كما ذكرنا، دعا فيه الطلاب إلى أن يقيسوا عليه دون شرح، وأصبحت هذه طريقته التي عرف بها، إذ امتاز كتابه هذا بالتركيز وكثرة الشواهد والأمثلة وخلوه من الشروح ما أمكن، واحتوى هذا

المؤلف جداول في النعت والبيان والبدل والتوكيد وعطف النسق والنداء وغيرها، وخلل هذه الأبواب وغيرها تمارين كثيرة(الشنطي، ١٩٦٧: ٦١)، والحق أن طريقته هذا المؤلف تجذب الطالب إليه، لسهولتها وبساطتها وتقرب هذا العلم من نفوس طلابه، لأنها تجري على نحو جديد وأمتد نظر السكاكيني إلى طالب اللغة ومتلقيها، وإنه عاد باللائمة على طلاب هذه اللغة، لأنهم يريدونها شرابا سائغا دون جهد ولا نصب، ورأى إحجاما شديدا عن اللغة، في حين لم ير انفراد اللغة العربية بالصعوبة من بين اللغات جميعا، فاللغتان الألمانية والروسية تفوقان العربية صعوبة وعسراً، ورغم ذلك يقبل أهلها على تعلمها، دون رغبة في استبدالها، وهم بإقبالهم عليها يستسهلون صعبها، بينما نحن في إدبارنا عن لغتنا نستصعب سهلها، لذا ينبغي أن نحببهم فيها، ونشوقهم إليها، حتى يجدوا في كل عسرة لذة وينبغ منهم الشعراء والأدباء(الشنطي، ١٩٦٧: ٦١-٦٢).

الحق أن السكاكيني لم يكن أول ثائر عربي على النحو والصرف فقد سبقه إلى ذلك (ابن مضاء القرطبي) الذي يعد أول ثائر على منطق النحاة وعللهم؛ لأنهم أخضعوا الظواهر اللغوية لنواميس المنطق، والجدل، وأصول الفلسفة، وإذا عددنا (ابن مضاء) أول عالم لغوي، حديث النظرة، صائب الرأي في حقيقة اللغة ونواميسها، أمكن عده بحق مؤسس المدرسة اللغوية الحديثة المعروفة (بالمدرسة الوصفية التقريرية) التي تنزع إلى درس الواقع اللغوي وترصد ظواهره المختلفة، وتحاول تحرير اللغة وعلومها من أثر الفلسفة والتعليل، والمنطق، وتصفيته منها، وانتمى إلى مدرسة (ابن مضاء) ابن خلدون الذي ثار على جعل القواعد غاية في ذاتها، وآمن بالشاهد المحتذى به والمقاس على منواله، دون إتمام القواعد على أذهان الطلاب، ثم كان ما كان من ثورة السكاكيني على النحو وأساليب تدريسه، وإعجابه بالأسلوب الخلدوني ودعوته إليه وإيمانه بتعلم الظواهر اللغوية على الأسلوب الوصفي التقريري كما فعل في مؤلفه (وعليه قس) وهكذا يمكن أن نسلك ابن مضاء وابن خلدون والسكاكيني في مدرسة لغوية عربية حديثة، وفي سلسلة نحوية واحدة، ويرى الباحث أن السكاكيني قد دعا إلى تعليم قواعد النحو من قبل المعلمين والمدرسين للطلاب تعليما بسيطا ليس فيه غموض

وذلك على أساس منهجي رصين بغية تبسط هذه القواعد دون المساس بأي شيء منها، لكي نجيب اللغة العربية للنشء العربي الجديد والإقبال على دراستها وإنمائها دون الخوض في التفاصيل الأخرى، وذلك باستعمال الشواهد ووسائل الإيضاح التي تقرب الفكرة إلى ذهن الطالب، وصحيح أن العلماء لم يأتوا بشيء جديد في هذا المنهج وإنما كل ما أتوا به هو السير على منهج البصريين والكوفيين، وعلينا الأخذ به دون الماس بالجواهر، وذلك باستعمال الطرق البسيطة التي تمكن الطلاب من فهم لغتهم العربية من خلال هذه القواعد التي تتميز بها لغتهم عن بقية اللغات العالمية التي تخلو من أبسط هذه القواعد ولم تراعي الاهتمام بها..

المبحث الثالث

في الأصوات والحروف التفت السكاكيني إلى دراسة الأصوات وخصائصها في اللغة العربية، وقد درس مزايا اللغة العربية، فكان من أهمها عنده، أن أصوات حروفها واضحة صريحة، في حين أن كثير من حروف اللغات الأوربية صامته أو خفية، وأرجع وجود الحروف الحلقية إلى البيئة التي كان يحياها العرب من بداوة وصحراء مفتوحة بهوائها الطلق النقي، مما خلق حلقا قويا قادرا على إخراج هذه الأصوات، وألقى على هذه الحروف أضواء التحليل النفسي فأوجد نوعا من العلاقة بينها وبين أمزجة ناطقيها، فرأى منهم ما يتصف بحدة الطبع وشدته ومنهم من يميلون إليه من صراحة ووضوح(الشنطي، ١٩٦٧: ٦٥)، وقد كان مثل هذه الأصوات في اللغة الآشورية التي اللغة السامية الأولى (يعقوب، ١٩٩٩: ١١١)، لكنها فقدتها منذ اربعة ألاف سنة كما كانت هناك حروف الهمس والغمغمة، وخلص السكاكيني إلى العرب أنفسهم في عهودهم المختلفة ضعفت حلوقهم فصارت تستثقل بعض الأصوات القوية، فلينوا القاف وجعلوها همزة، وحذفوا العين من بعض كلماتهم، كما يقولون في العامية (لسا) بديلا من (لهذه الساعة) واستبدلوا بالحركات القصيرة في بعض الكلمات حركات طويلة، لقلة همتهم وارتخاء نفوسهم، ف (قم) يلفظونها (أوم) و (قل) يلفظونها (أول) (يعقوب، ١٩٩٩: ٦٥)، وهذا ما ظهر في المناطق المصرية (يعقوب، ١٩٩٩: ٦٥) (وافي،

٢٠٠٤: ٢٨٧)، ((ومن هذا القبيل ما ذكره من أن صوت الضمة والفتحة أصلح للغناء من صوت الخفض الثقيل، لسهولتها، ويرجع كثرة وجود هذه الأصوات أو قلتها، في لغة دون أخرى إلى أسباب أهمها الإقليم، فسكان المناطق الباردة يميل لفظهم إلى الضم والخفض؛ لأنهم لا يفتحون أفواههم خشية البرد، أما سكان المناطق الحارة فيميلون في ألفاظهم إلى الفتح استبراداً، ولهذا كثرة الفتح في لغة العرب وهم سكان قفر حار)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٦٦)، ((وعالج السكاكيني الأصوات العربية على مستوى الكلمة، فخص اللغة بأصوات تعطي ألفاظها طواعية وبيانا لأعمق التأثيرات، فأن (لا) أنسب من كل أدوات النفي في أي لغة، لأن مد الصوت فيها يجعل لها هذه المكانة)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٦٦)، وتبرز أهمية الحركة الطويلة في اللغة العربية، و (واسع وغافر وكبير وعليم وصور) كلها _ بهذا للجرس والصوت _ تكتب أطوع التعبيرات وأعمق التأثيرات أما جرس كلمة (حق) بحائها وقافها المشددة العميقة، فأننا لا نجد لها مثيلا في لغة أخرى في الدلالة على معناها، وذلك عند قائلها وسامعها على السواء، ويحق للعرب أن يفاخروا بصوت كلمة (حب) لأن رائحة الحب والحزم والثبات عليه تفوح من جرس هذه الكلمة، ولأنه يخرج من أعماق القلب مع أطباق الشفتين على الباء المشددة، ويرى كذلك من (مرحباً) إنها قطعة موسيقية يتبادلها الناس، وهذا من أثر أصوات حروفها: الميم والراء والحاء والباء والتنوين وحركات الفتح فيها، وانتهى إلى أن ألفاظ اللغة العربية ألفاظ موسيقية جميلة. والحق أن أقواله هذه لا تخلو من نظرة عاطفية وهي نتيجة اعتزازه الكبيرة بلغة قومه(الشنطي، ١٩٦٧: ٦٦)، ((ويبدو أن السكاكيني آمن بالنظرية القائلة أن بدء اللغات لم يكن وحيا ولا إلهاما ولا توقيفا، بل كان محاكاة الإنسان للطبيعة في أصوات رياحها ومياهها ووحوشها)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٦٧)، وبهذا خالف رأي ابن فارس وهيراكليت heraclite والأب لامي lami والفيلسوف دوبونالد dobonald الذي كان دليلهم نقلي لا عقلي معتمدين على قوله تعالى: **{وعلم أدم الأسماء كلها}** وكان مؤيدا لرأي ابن جني الذي أعجب بهذه النظرية والذي قال: وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة،

كنوي البحر وحنين الرعد، وخرير لماء ونحق الغراب، وصهيل الفرس، وتزيب الظبي (يعقوب، ١٩٩٩: ١٤-١٦) (الشنطي، ١٩٦٧: ٦٧) (وافي، ٢٠٠٤: ٢٨٧). وهناك من الألفاظ ما يدل صوتها على معناها بنفسها، فيعضها تقصد به حكاية الصوت نحو (فحت الأفعى) و(شق الثوب) و(مص الشراب) ومنهاما تراعي فيها حكاية الحركة، لما بين حركة الصوت الممدود أو القوى وحركة المحكي من المطابقة من مثل (حام الطائر) و(سال الماء) و(هب النائم) و(شيت النار) أو حكاية ضفة الشيء بما توهم من مقاطع الحروف من الصفات وما في اقترائها من الهيئات، نحو (رث الثوب) و(وجف الغض) ومن ذلك في لغة الأطفال (دح) للشيء الحسن، و (كخ) للشيء القبيح، كما توهموا في اقتران الدال والحاء من الحسن، واقتران الكاف والخاء من القبح (الشنطي، ١٩٦٧: ٦٧) ((ونظر إلى أهمية الصوت الخارجي في العبارة العربية، والى طقة الصوت في علوه أو انخفاضه، والى هيئة إطلاقه في لينة أو خشونته، وقد أعار طبقة الصوت أو هيئته مكانة كبيرة، إذ لولا الاختلاف فيهما، لفقد كثير من الكلام دلالته، وكان أكثره لغوا ونحن نستعمل (إن) للتأكيد، نحو: إن زيداً قائم ولكن إذا لم نجعل النيرة (stress) على النون فلا تقيد تأكيدا، وتستعمل (كلا) للزجر ولكن لم تلفظها بنيرة فلا تقيد في الكلام زجرا، ورأى أن هيئة الصوت قد تقلب المعنى إلى ضده، ومثل ذلك مثل الذي حكم عليه مرة أن يقف أمام الناس ويقول: أيها الناس أنا لص فلما وقف قال: أيها الناس أنا لص ؟ بهيئة استفهام لا إخبار فأنقلب المعنى من إقرار إلى إنكار، ولعل انقلاب الكلام من معنى إلى ضده هو سيب عده الأضداد الكثيرة في اللغة العربية، وجمال الأصوات وموسيقى الكلام، وحسن الأداء والإرسال، واختلاف النبر ومواقعه كل هذا يؤثر في السامع أيما تأثير حتى يمكن أن يخدع في القصيدة القبيحة فيظنها جيدة)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٦٧-٦٨).

وكان السكاكيني على اهتمام بالغ بالأصوات المفردة في الحروف العربية فبسط القول في هذه الحروف بسطا واسعا، مما دل على سعة آفاقه في البحث والمقارنة مع حروف اللغات الأجنبية قديمها وحديثها، وأخذ يبحث في تسميتها ولفت نظره أن

(سيبويه) و (الخليل بن أحمد) سمياها (الحروف العربية) وقلب في المعاجم فوجد أن الحرف من كل شيء هو طرفة وحدة، ولم يجد في هذه المعاني ما يوضح تسميته حروف الكتابة بهذا الاسم، ولم يبق له إلا أن يجتهد، فخطر بباله أن كلمة (حرف) مشتقة من كلمة (حفر) وذلك من باب الاشتقاق الكبير الذي يوضح العلاقة بين معنيين متناسبين في اللفظ دون ترتيب حروفهما، ورأى أن تقديم حرف على أخر في العربية شيء مألوف، ومن مثل (جبذ–وجذب) و(حمد– ومدح) وغير ذلك كثير، ويؤيد رأيه أن الكتابة في أول عهدها كانت حفرا من الصخور، وعلى ذلك فقد رأى أن كل ما يكتبه حتى الضمة والفتحة والكسرة والسكون والوصلة والمدة والشدة حروف، لأنها تدل على أصوات، وانتهى إلى مخالفته سيبويه والخليل في هذه التسمية، مقترحا تسميتها (النقوش العربية) (الشنطي، ١٩٦٧: ٦٨–٦٩) ((وتكشف للسكاكيني أن للحروف الهجائية تاريخا، فراح يدرس تاريخها وتطورها منذ نشأتها على مر العصور والأزمان، ورأى أن الخط قبل أن يصل إلى صورته الحالية قد قطع أربعة ادوار: أولها: دور التصوير الذاتي، بمعنى أنهم إذا أرادوا أن يكسبوا كلمة (أسد) صوروا أسداً، أو كلمة (وردة) صوروا وردة. وثانيها: دور التصوير الرمزي، حين اصطلحوا فيه على اتخاذ رموز للمعاني التي لا يمكن تصويرها، كأن يرمز عن المحبة بالحمامة، وعن البغض بالحية. ثم جاء دور ثالث: وهو الدور المقطعي الذي تدل فيه الصورة على أول مقطع من أسمها، فأصبحت صورة الحصان لا تدل على حصان كما كان في الدور الأول وإنما دلت على الصوت الأول من أسمها المشتمل على الحرف الأول وحركته معاً وهو مقطع مؤلف من حاء مكسورة وكذلك صورة الغراب استعملت في هذا الدور للدلالة على مقطع مؤلف من غين مضمومة. وهذا ما حدا به أن يظن في كتابة الهمزة على الألف والواو والياء، فتفتح مع الألف بدون وجود فتحة وتضم مع الواو بدون وجود ضمة، وتكسر مع الياء بدون وجود كسرة، إنها من الأشكال المقطعية التي تعود إلى هذا الدور وآخر هذه الأدوار هو الدور الهجائي الذي استعمل فيه المقاطع حروفا مستقلة، فصورة الحصان التي كانت تدل على حاء مكسور في الدور المقطعي،

استعملت هنا للدلالة على الحاء الساكنة وهذا الدور هو أقل الأدوار أشكالا وأسهلها استعمالا، وتصور أنهم إذا أرادوا كتابة كلمة (حسن) مثلا، رسموا ثلاث صور: الحصان والسيف والنخلة فالحصان حاء والسيف سيف والنخلة نون)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٦٩) (يعقوب، ١٩٩٩: ٢٣١) ، وينبه السكاكيني إلى أن الفضل في وضع الحروف الهجائية يرجع إلى الفينيقيين الذين يعدون واضعي أهم أسباب الحضارة لأكثر أمم الأرض، وحروفهم هي أصل كل هجاء(الشنطي، ١٩٦٧: ٧٠) (يعقوب، ١٩٩٩: ٢٣٢). ((ولا تزال الحروف العبرية والسريانية تحمل أسماء صورها القديمة، فأسم الباء فيها (بايت) ومعناها بيت، لأن صورة هذا الحرف كانت تشبه البيت، واسم التاء فيها (تاو) ومعناه هذه السمة التي ترسم بها أفخاذ الإبل والخيل، لأن صورة هذا الحرف في الفينيقية، وفي اللغات التي أخذت حروفها كاليونانية والإفرنجية، وهي على هيئة صليب، ومما يستحق النظر أنه ورد في العربية لفظة (تواء) بمعنى رسمة في الفخذ أو العنق، واسم الجيم في العبرية (جيمل) وفي السريانية (جومل) ومعناها جمل، لان صورة هذا الحرف في الخط الفينيقي تشبه رأس الجمل عنقه، وهكذا سائر الحروف)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٧٠)، ((ورأى أيضا أن الحروف العربية مثل غيرها مستمدة من الحروف الفينيقية بدليل أن هذه الحروف ما زالت تحمل إلى اليوم أسماءها القديمة، بعضها بلفظه الأصلي، وبعضها بتغيير قليل، يستثنى من ذلك حرف العين، والسكون والشدة، والمدة، والهمزة والوصلة، والتنوين، والحركات القصيرة من ضمة وفتحة وخفضة لأنها عربية، كما أن هناك تشابهاً بين الحروف العربية وتلك الحروف الفينيقية رغم تباعد الأزمان، وتطور أشكال حروفنا مع تقادم العهد وتوالي السنين)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٧٠) ((ويعجب السكاكيني كيف أمكن اللغات اليونانية والإفرنجية أن تأخذ الحروف الفينيقية التي تدل صورها على أول أصوات أسماءها فإذا فهمنا أن صورة بيت تدل على الصوت الأول في لفظة (بيث) الفينيقية، ولفظة (بايت) العبرية والسريانية، ولفظة (بيت) العربية؛ فكيف يمكن في القديم أذن أن تدل صورة البيت على صوت (ب) في اللغات الأخرى، الذي يمكن أن يبتدئ فيها أسم البيت بصوت أخر ؟ وينتهي

إلى العلاقة بين صور الحروف اليونانية والإفرنجية وبين أول أصوات أسمائها، مفقودة)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٧٠)، وكانت العلاقة بين الأصوات وبين الصور والنقوش الموضوعة لها معقولة وواضحة في أدوارها الأولى حتى أول الدور الهجائي، الأمر الذي جعل الكتابة حينئذ مقروءة من تلقاء نفسها، لان الباء كانت بيتا، والجيم رأس جمل، والكاف كفا الخ..... وأخذت هذه العلاقة تختفي شيئا فشيئا منذ نشأة الدور الهجائي فاقتصرت إلى نصفها، ثم ربعها، ثم إلى أثر ضئيل منها، ميلا للسهولة واليسر إلى أن وصل الأمر أن أصبحت الحروف رموزا لا علاقة بينها وبين أصواتها وصارت هذه الحروف لا تؤخذ إلا بالدرس وانقسم الناس بسبب ذلك إلى أميين ومتعلمين، كما أصبح تعلم الحروف الهجائية –في لغات الأرض جميعاً– ليس أمرا سهلا. على أن السكاكيني بالتأمل الفاحص والنظر الدقيق حاول أن يربط بين شكل الفم عند نطق الصوت وبين الحرف الدال عليه، ولمح أن الألف والواو والياء، من أدل الحروف على شكل الفم عند التلفظ بأصواتها، مما يسهل قراءتها من تلقاء نفسها فالآلف خط عمودي، لان فتحة الفم عمودية عند اخراج صوتها، وشكل الواو لا يخرج عن أنه دائرة كشكل الفم المضموم عند قراءة هذا الصوت، وهو يشبه حرف (هـ) الإفرنجي في الخط، إلا انه زيد له ذنب من أسفله، طول مع الزمن حسب عادة العرب من مشق الحروف ومطها في أواخرها عند الإسراع في الكتابة، وهو شبيه بما زيد الحرف (هـ) من ذيل في رأسه. أما الياء فهي على صورة دائرة مستطيلة عرضا شبيه بشكل الفم المستطيل عرضا عند اخراج صوتها، ثم أضيف لها زيادات كفتحة من أعلى للسرعة في الكتابة، ونقطتين من تحتها للتزيين، أو للتمييز عن غيرها(الشنطي، ١٩٦٧: ٧١-٧٢) ((ومن أقوى الحروف التصويرية الواضحة في العربية، هو حرف العين الذي كان في أصله دائرة تشبه حاسة البصر، والذي لا نزال نكتبه على هذه الشاكلة إلا إذا وقع طرفا زدنا له نصف دائرة مستطيلة على هيئة نصف دائرة الوجه وكأنها قرينة على أن المقصود به هو العين بذاتها، للتدليل على الصوت الأول من أسمها، ومن ذلك حرف السين، فانه يشبه الأسنان، وصوته هو صوت الأول في كل كلمة سن)) ((واجتهد السكاكيني

فـي أسـباب مواضـع الـنقط وعـدده)) (الشـنطي، ١٩٦٧: ٧٢)، إذ أن التنقـيط وظيفتـه التمييز بين الأحرف المتشابهة، والذي كان معروفا قبل الإسلام، إلا انـه لم يكن يشمل كل الأحرف المنقوطـة حالياً(يعقوب، ١٩٩٩: ٢٣٣)، ((فنقطـة البـاء من تحتها اشـارة إلى حركة الشفة السفلى عند التصويت بها، وللتاء نقطتان من فوقها إما المجرد التمييز عن غيرها، وإما إشارة إلى الظهور سنين عند التلفظ بها، ويؤيد هذا القول أن النقط نفسه يشبه الاسنان، والثاء لها ثلاث نقط إشارة إلى ظهور طرف اللسان بين الأسنان العليا والسفلي، والنون تشبه غار الفم، ونقطتها في وسطها تشير إلى التصاق طرف اللسـان بـأعلى الحنـك عند اخراج صـوتها، وهـي تشـبه النون(الشـنطي، ١٩٦٧: ٧٢) السومرية. ويعجب من الاصطلاح الأخير في كتابة النون بهذا الشكل (ن) لأنه ردها إلـى أصـلها كمـا كانـت)) (الشـنطي، ١٩٦٧: ٧٢-٧٣) (ابـن النـديم ١٩٧٨). ومـن الحـروف مـا نقلـت عـن الفينيقيـة، ولكـن جعـل أعلاهـا أسـفلها، مثـل الكـاف فهـي فـي الفينيقية هكذا (لا) فأصبحت في العربية هكذا (ك). وأما الإفرنج فقد جعلوا يمين هذا الحرف يساره، وأعلاه أسفله فأصبح عندهم هكذا (k). ومنها ما تغير من جهة اليسار إلى اليمين، مثل اللام، فهي في الفينيقية واليونانية القديمة على هذه الشكالة (L)، وفقا لصورتها الحالية في اللغات الأوربية أما العربية فتكتبها هكذا (ل) وهناك حروف غيرت من الوضع العمودي إلى الوضع الأفقي، مثل الياء، لأنها تشبه الياء في اللغة اليونانية القديمة التي كانوا يكتبونها هكذا (G) وقلبت في العربية إلى (ى) وأما الإفرنج فجعلوها عامودية هكذا (γ)، والسكاكيني يحاول أن يرد الحروف العربية إلى أصولها الفنيقيية، ويرجع هذه التغيرات والتطورات التي حدثت فيها إلى تسهيل الكتابة العربية، وملائمة مـن الجهـة اليمنى(الشـنطي، ١٩٦٧: ٧٣) ((ومـن نظـره الثاقـب فـي دراسـة الحـروف العربية، ما تبين له أنها كانت في تاريخها القديم – منفصلة، ثم تطورت فأتصل بعضها ببعض مع الأيام باستثناء حرف الألف والواو والدال والذال والراء والزاي، فأنها لا تزال تكتـب منفصـلة عمـا بعـدها إلـى اليـوم ورأى أن سـنة التطـور فـي الكتابـة هـي وصـل الحـروف المنفصـلة، لان الكاتـب لا يميـل – بطبيعتـه فـي الكتابـة إلـى رفـع القلـم عـن

القرطاس ولو حدث أن انفصلت هذه الحروف اليوم فلا بد بالتطور أن تتصل غدا وبلغ الامر من قوة الوصل في العربية إلى وصل الكلمتين والثلاث والأربع بعضها ببعض من مثل (القلم)، (بالقلم)، (فبالقلم)، وكأن قوله بطبيعة تطور الحروف العربية من الفصل إلى الوصل رد حاسم على من دعا إلى تفريقها وتيسير كتابتها بالاقتصار على صورة واحدة منها، هي الحروف المنفصلة، تخفيفاً= ٦٠ من عددها، وتسهيلا لوضع علامات الضبط عليها)).إشارة إلى الذين دعوا بإصلاح الخط العربي في هذا الاتجاه أمثال المهندس نصري خطار الذي اشتهر بعد استنباطه ما سماه (الابجدية الموحدة) التي تعتمد على الأحرف القديمة المنفصلة بعضها عن ببعض فتعطي كل حرف من حروف الهجاء شكلا واحداً بدل الأشكال المتعددة الذي يأخذها حسب الرسم الحالي وكذلك محمود تيمور الذي أقترح في إصلاح الخط العربي في أن تحذف الحروف التي يسميها أهل فن الطباعة (حروفا من الأول) على أن تؤثر الكاف المبسوطة وتظل حروف الألف والدال والراء والزاي والواو والتاء المربوطة واللام ألف باقية على صورتها في حال أفرادها (يعقوب، ١٩٩٩: ٢٤٣) وهو كذلك رد حاسم على من دعا إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، بحجة أن الأولى منفصلة كلها، والثانية متصلة أكثرها، في حين لو نظرنا إلى الحروف اللاتينية نفسها لوجدناها تأخذ طبيعتها الحرة في الكتابة فتتشابك ويأخذ بعضها برقاب بعض وأن كانت المنفصلة في الطباعة)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٧٤)، إشارة إلى عبد العزيز فهمي الذي اشتهر بمشروعه الخاص باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية وذلك بالإبقاء على عشرة أحرف عربية لا نظير لها في الأبجدية اللاتينية وهي: أ، ج، ح، خ، ص، ض، ط، ظ، ع، غ والاستعاضة بالأحرف العربية الباقية بالأحرف اللاتينية 1) btdrzsfq klmnhwy (يعقوب، ١٩٩٩: ٢٤٥-٢٤٦)، وغيرها من المقترحات التي تضمنها مشروعه استخدام الحروف اللاتينية تمتد إلى أواخر القرن التاسع عشر، حين نشر المستشرق الألماني (ولهلم سبيتا) الذي كان يعمل مديرا لدار الكتب المصرية آنذاك. علما بأن دعوة استخدمت الحروف اللاتينية تمتد الى اواخر القرن التاسع عشر حين نشر المستشرق

الالماني (ولهام سبيتا) الذي كان يعمل مدير لدار الكتب المصرية اذاك كتابه (قواعد العربية العامية) في مصر ١٨٨٠ الذي تطرق فيه إلى صعوبة اللغة العربية الفصحى (الحمد، د. ت: ٢٢٠) (يعقوب، ١٩٩٩: ٢٤٤)، وكانت حروفنا في أول أمرها مهملة دون تنقيط، ثم أزيلت عجمتها وإيهامها بالنقط، فقد كانت الحروف العربية في أصلها – دون تنقيط– تسعة عشر أو ثمانية عشر شكلا، لا تسعة وعشرين أو ثمانية وعشرين كما هي الآن، وعولجت قلة هذه الحروف باستخدام الشكل الواحد في الحرف لعدة أغراض فاستخدمت الألف همزة وحركة طويلة وحركة ممدودة، واستخدمت الواو والياء حركتين طويلتين وحركتين ممدودتين وحرفين، واستخدمت الألف والواو والياء حركات قصيرة بدلا من الضمة والفتحة والكسرة، ويرجح أن الواو في (أولئك) وفي (عمرو) من أثار ذلك العهد، ولكنه يعجب من الرجوع إلى استعمال الحركات القصيرة بدلا من الطويلة في مثل إسحق وإبراهيم، والرحمن، وسليمان، والسموات، والملائكة، وغير ذلك. واستخدم شكل الباء للباء والتاء والثاء وللياء إذا وقعت أولا أو وسطا وأستخدم شكل الجيم للجيم والحاء والخاء وشكل السين للسين والشين، وشكل الصاد للصاد والضاد، وشكل الطاء للطاء والظاء، وشكل الغين للعين والغين، وشكل الفاء للفاء والقاف وكأن كتابتهم في أول عهدها كانت شبه بما سمي اليوم (الخط المختزل) ((ورأى السكاكيني أن دراسة مخارج الحروف وصفاتها وقسمتها إلى طوائف كالحروف المهموسة والمجهورة والشديدة والرخوة والمتوسطة والمطبقة والمنتفخة والمستعلية والمتخفضة شيء تكفل به عند العرب علم الصرف والتجويد، ولا غنى على هذه المباحث لمن يتولى تدريس اللغة العربية في المرحلة الابتدائية، ليراعي النطق السليم ويعلم الناشئة أصوات اللغة المفردة والمركبة على الوجه الصحيح)) (الشنطي، ١٩٦٧: ٧٤).

وامتد اهتمامه إلى اللكنة أو ما يمكن أن نسميه (اللحن الصوتي) وبين عامل التأثير الأجنبي في الأصوات العربية، فحين خص أصوات اللغة الحلقية بالعرب بين صعوبة نطق غيرهم ببعضها، مما دعاهم إلى إسقاط هذه الأصوات وإحلالهم أصواتا أخرى غريبة محلها بمعنى أنهم يجمعون على غير أصواتها الأصلية ورأى أن التعجم

هذا كان سببا من أسباب وجود الألفاظ المترادفة في اللغة العربية من أثر اختلاط الأعاجم بالعرب، فكلمة (أعطى) عربية بعينها وطائها، ولكن الأعاجم نطقوها (أتى) ب أن أسقطوا العين، ورققوا الطاء ولم تلبث هذه الكلمة الجديدة أن أصبحت عربية كأنها مرادفة لكلمة أعطى، والحق أنهما كلمة واحدة، ومثل على أبدال العين همزة بأمثلة مختلفة نحو أبدع وأبدأ ورعى ورأى. ومن الحروف الحلقية التي يستصعب الأعاجم لفظها على الوجه الصحيح (الحاء) فحولوها تارة إلى همزة نحو حان وأن، وتارة إلى ألف نحو ذرح وذرى، وتارة إلى ياء نحو جلح وجلي، وتارة إلى هاء نحو المدح والمده، كما جعلوا الخاء كافا كقولهم في مخاخة العظم مكاكته(الشنطي، ١٩٦٧: ٧٥-٧٦) عند وتشارك حروف الحلق في الصعوبة عند الأعاجم الحروف المفخمة وهي الصاد والضاد والطاء والظاء والقاف، فيميلون إلى ترقيقها، ويلفظون الصاد سيناً نحو صك الباب وسكه، أو زياً نحو بصق وبزق، ويجعلون الضاد دالاً نحو نهض ونهد، أو ثاء حض وحث، ويجعلون الظاء جيما نحو تلمظ وتلمج، ويجعلون القاف كافاً مثل قشط وكشط، أو همزة نحو طرق وطرأ أو ألفا نحو الماء المصفق والمصفى، كما لمح من أسباب المترادفات في العربية التناسب في مخارج بعض الحروف وتقاربها، نحو نعق ونهق وأهتم وأغتم، وطمع وطمح، وأغن وأخن (الشنطي، ١٩٦٧: ٧٧). وتعمق في دراسة الحروف العربية ذاتها، من ناحية عددها فبين كيف أختلف الصرفيون في عددها، في أنها ثمانية وعشرون حرفا أو تسعة وعشرون..

ورغم هذا الاختلاف فقد. انتهى إلى تقسيم أنواع هذه الحروف إلى أربعة أقسام وحصر عددها بجميع أنواعها وأشكالها سبعة وأربعين حرفاً(الشنطي، ١٩٦٧: ٧٦). وينقد السكاكيني الصرفيين في بعض نقاط تستحق النظر والتقدير، إذ أراد أن يصحح نظرهم إلى حرف الألف والواو والياء، حين عدوها حروفا، والحق عنده أن الألف ليست إلا حركة وأما الواو والياء فهما مشتركان بين الحرف والحركة وضرب على ذلك الأمثلة الصوتية، فالواو في (ثوب) حرف وفي (عود) حركة والياء في (بيت) حرف، وفي (عيد) حركة، ويرى مثل هذا الازدواج في الأصوات، في الحروف الافرنجية، فإن) y

(حرف في كلمة (yes)، وحركة في كلمة (truly) وكذلك (w) هي حرف (was) وحركة في ((saw(٢ ((وحصر أنواع الألف في الكتابة، غير شكلها مع اللام، فهي قائمة مثل الألف في عصا، وأفقية مثل الألف في مأكل وياء بدون نقطتين مثل الألف في فتى وألف صغيرة فوق الحرف لا بعده مثل الألف في (الله) و (ذلك) وينقد الذين يخصون تسمية الألف في مثل فتى الفا مقصورة، لان الألف المقصورة هي على كل أشكالها الأربعة السابقة، وسميت كذلك لأنها أقصر في اللفظ من الألف الممدودة في مثل سماء وحمراء ومادة)) الألف(الشنطي، ١٩٦٧: ٧٧). واسترعى نظره اختلاف ترتيب الحروف، فتوجه إلى ترتيبين منها أولهما ترتيب (نصر بن عاصم الليثي) (ت٨٩ هـ) و(يحيى بن يعمر العدواني) (ت ١٢٩هـ) في زمن عبد الملك بن مروان، وهو الترتيب الشائع في أيامنا هذه وقد ابتدأ هذا الترتيب بالألف ثم الباء، لانهما أول الحروف في (أبجد) ووضعت الألف ذات الحركة في لام ألف فيما بعد أما الترتيب الآخر فهو ترتيب (سيبويه) الذي ابتدأ بالهمزة منفردة، ووضع الألف وحدها بين الحركات الطويلة في أخر الحروف ومن خلال مناقشة هذين الترتيبين يخلص إلى أن الحرف الأول ومن الأبجدية هو الهمزة لا الألف، سواء وضعت على ألف أو بدونها، وذلك لان الألف لا تقع ابتداء (الشنطي، ١٩٦٧: ٧٧-٧٨) (مجلة المورد، ٢٠٠١: ٢٩/٩٢). ورأى أن من مزايا الحروف العربية أنها تكتب وتقرا من اليمين إلى اليسار كما هو الحال في السريانية والعبرية وسائر اللغات التي اقتبست الحروف العربية أما الحروف الإفرنجية فإنها تكتب من اليسار إلى اليمين، في حين أن الهيروغليفية، وإن كانت تبدأ من اليمين في أول السطر، إلا أنها تبدأ في السطر التالي من حيث انتهى سابقه، ويستشهد على ذلك ببتين طريفين: بصاحب الاحباس بروذنة تمشي إلى خلف إذا ما مشت بعيدة العهد من الربط كأنها تكتب بالقبطي أما الحروف الصينية فإنها تكتب من الأعلى إلى الأسفل، في حين الحروف الإفرنجية من اليسار إلى اليمين، فهذا يخالف السليقة والطبع، ذلك أن الإفرنج أنفسهم يقومون بشتى أعمالهم ومختلف أمورهم من اليمين إلى اليسار، وعلى هذا فإن اصطلاح العرب أقرب إلى الطبع وأسهل تناولا،

وثاني مزايا الحروف العربية، أنها قليلة الأشكال بالمقابلة مع الحروف اللاتينية، مع أنها أكثر عدا فالحروف العربية تقسم إلى كبيرة وصغيرة، فضلا عن وجود حروف ليس لها إلا صورة واحدة، وهي الألف والواو والدال والذال والراء والزاي والطاء والظاء فكأن النوعين نوع واحد، لا فرق في ذلك بين حروف الكتابة وحروف الطباعة وهذه حسنة من حسنات الأبجدية العربية، أما الحروف اللاتينية فتنقسم إلى حروف طباعة وحروف كتابة وكل نوع منها فيه حروف كبيرة وأخرى صغيرة لا رابط بينها ولا صلة في الشكل، وبهذا تكون حروفهم أضعافاً مضاعفة وثالث هذه المزايا أنه إذا تجاوز حرفان متجانسان أو متقاربان في المخرج في كلمة واحدة، وكان الأول ساكنا والثاني متحركا كتب الحرفان حرفاً واحدا فوقه شدة للاختصار، وأما الإفرنج فيدغمون الحروف المتجانسة أو المتقاربة بتكرار الحرف إذا كان من جنس الحرف الذي قبله، أو باللفظ إذا كان قريبا منه، ولا بد من التكرار لأنه ليس عندهم علامة للتشديد أو الإدغام، ورابع هذه المزايا أن الخط العربي ينهي الكلمة بالحرف الكبير من الأبجدية إيذانا بنهايتها، وأما اللغات الأوربية فتستخدم الحرف الكبير لغير هذا الغرض، من مثل بداية الكلام أو بداية بعض الكلمات المعينة، وليس هناك دليل على نهاية الكلمة إلا فصلها عن الكلمة التي تليها بفراغ عن القرطاس، وتتعلق بهذه الميزة ميزة أخرى، وهي أن الكلمة في اللغة العربية تأخذ فسحة أصغر من الفسحة التي تأخذها الكلمة الافرنجية، لان حروفنا أصغر حجما وادق شكلا، ولاسيما الحروف الابتدائية والوسطى، ولاتصال حروفنا بعضها ببعض إلا حروفا قليلة، أما حروفهم فكلها منفصلة، يضاف إلى ذلك أن الحركات القصيرة عندنا من ضمة وفتحة وكسرة، والضوابط السكنة والوصلة والمدة والشدة والتنوينات على اختلاف أنواعها، كل هذا لا يكتب في صلب الكلمة، وإنما يكتب فوق الحرف أو تحته ناهيك عن احتمال الاستغناء عنها؛ لأن لها مواضع معلومة مطردة، بخلاف اللغات الأوربية، التي لابد من رسم حركاتها في صلب كلماتها ذلك لأنها لا تجري في مقياس مطرد، فكلمة لندن مثلا نكتبها بأربعة حروف في حين أنها تكتب في الإنكليزية بستة حروف، فالطابع العربي يصف أربع كلمات قبل أن يصف

غيره في الإنكليزية كلمة (thought) أو كلمة (throught out) أو كلمة .(beautiful))(الشنطي، ١٩٦٧: ٧٨-٩٠).

المبحث الرابع

الكتابة آمن السكاكيني بأن الشأن في الكتابة ليس في اختصارها، بل في صحتها وضبطها، وقادة هذا المبدأ إلى الاعتقاد بأن الحروف العربية من هذه الجهة أتم من الحروف الأوربية، واستشهد بقول ابن فارس من أن العرب انفردت (بالهمز في عرض الكلام مثل سأل وقرأ، ولا يكون في شيء من اللغات إلا ابتداء). ثم أضاف السكاكيني إلى هذا القول إن همزة الإفرنج الابتدائية لا يوجد لها صورة بين حروفهم، فهمزة القطع عندهم واردة في كلماتهم المبدوءة بحركة (on) أو (in) أو (at) أو (it)، فيلفظونها ولا يكتبونها، وكان الالزام أن يضعوا قبل كل حركة في هذه الكلمات وأشباهها حرفا يدل على الهمزة، وإذا وقعت في درج الكلام مثل (put it on) وصلوها، دون علامة للوصل، أما العربية فالهمزة فيها واضحة نطقا وكتابة، فكلمة (on) مثلا نكتبها (أن) بهمزة وضمة ونون(الشنطي، ١٩٦٧: ٨١)، ورأى أن الأصل في الخط العربي أن يكون مطابقا للفظ. فتكتب كل كلمة كما ينطق بها، وينطق بها كما تكتب إذ أن لكل حرف في اللغة العربية صوتا خاصا به لا يتغير، كما أن لكل صوت حرفا خاصا به يدل عليه. بخلاف ما في بعض اللغات الأوربية من تصوير الصوت الواحد بصور عديدة، فصوت الكاف يصور عندهم تارة بحرف k، وتارة بحرف q، وتارة بحرف c، وتارة بحرف x ممزوجا بحرف s، كما يجعل للحرف الواحد أصوات عديدة من مثل حرف s فإنه ينطق به سيناً مرققة في sit، وشيناً في sure، وزياً في rise، وصادا – سيناً مفخمة في saw(الشنطي، ١٩٦٧: ٨٢) والحق أن الصوت في العربية قد ينقلب إلى صوت غيره، فالسين قد تقلب زياً في مثل غرس وعرز، أو صاداً في سك الباب وصكه، وغيرها، وواضح هنا أن كلمة من هذه الكلمات كتبت كما لفظ بها، وكأننا جعلنا الكلمة كلمتين، ولم نجعل الحرف الواحد ذا صوتين أو أكثر، وخلص إلى أن الإفرنج. يكتبون شيئا ويقرؤون شيئا أخر، على طريقة ابن كيسان الذي كان يستملي

أبا عبيدة النحوي إذ كان يكتب غير ما يسمع ويقرا غير ما يكتب (الشنطي، ١٩٦٧: ٨٢) ((وعد من مزايا الحروف العربية أن للصوت المفخم فيها صورة خاصة به وللصوت الرقيق صورة أخرى، مثل السين والصاد، والتاء والطاء، والدال والضاد، والذال والظاء، والكاف والقاف، بخلاف اللغات الأوربية ففي بعضها حركات مفخمة وحركات رقيقة توضع بعد الحرف فيفخم أو يرقق كما في اللغة الروسية وأما في غيرها فلا يوجد إلا حرف واحدا، يستعمل تارة مفخماً، وتارة رقيقا، بدون ضابط، فحرف (s) في الإنكليزية مثلا رقيق في sow ومفخم في saw، وحرف d رقيق do، ومفخم doll، وحرف L رقيق في low، ومفخم في law، وحرف c رقيق في cold، ومفخم في called، وحرف t رقيق في tell، ومفخم في) (tall)(الشنطي، ١٩٦٧: ٧٧) وكره السكاكيني أن يتيه العرب بلغتهم على أصحاب اللغات الأخرى، وأن يتحدوهم دون سند في الحقيقة، فقد أنكر اختصاص اللغة العربية بصوت الضاد دون غيرها من اللغات، وأنكر بالتالي أن يكون العرب _ هم وحدهم _ الناطقين بهذا الصوت، وأن لغتهم هي (لغة الضاد) وفقا للقول الشائع المشهور، لأنه لمس هذا الصوت في اللغة الإنكليزية، كما في لغة (doll) ويبدوا أن صوت الضاد القديمة التي نسبت إلى العرب وافتخروا بها، هي غير هذه الضاد التي ننطقها نحن اليوم، وأن تلك الضاد قد طواها التاريخ في تضاعيف الزمن وأصبحت حلقة مفقودة في الدراسات الصوتية في اللغة العربية، إلا أن بعض الباحثين المحدثين يميل إلى الأخذ بأن ضاد العراقيين في لهجتهم العامية، وكذلك أهل نجد والخليج العربي، هي أقرب ما يكون إلى صوت الضاد القديمة(الشنطي، ١٩٦٧: ٨٢-٨٣)، رأى السكاكيني في الحروف العربية الجمال ذاته، لأنها تتألف في كل الأشكال ففيها الخطوط المنحنية والمستقيمة والمستديرة والبيضية والهرمية ، والمجوفة والمحدبة والقصيرة والطويلة والنازلة والصاعدة والقوسية والمسننة متصلة أو منفصلة، فوقها أو تحتها من النقط، والحركات، والشدات، والتنوينات، والمدات، وهمزات الوصل والقطع، مما لا تشبهها في لغة أخرى وقديما كان العرب يلونون كتابتهم بألوان مختلفة، الأسود للحرف، والأحمر للشكل، والأصفر للهمزات،

والأخضر لألفات الوصل، فأحلوها من الفنون الجميلة محل التصوير والنقش، واستخدموها للزينة والزخارف، فزينوا بها أبنيتهم وأدواتهم النفيسة، إذ دهش الغرب من هذه الرسوم والزخارف حتى أخذوها وزينوا بها كنائسهم، كما أستخدم الشعراء العرب بعض حروفهم في الغزل على سبيل التشبيه، فالقامة الهيفاء ألف، وعطفة الصدغ همزة والعارض لام والحاجب نون والطرة المصففة من الشعر سين، والخال في وجه الحسناء نقطة سوداء على صفحة بيضاء(الشنطي، ١٩٦٧: ٨٤). وقد عاصر السكاكيني حملات حول الحروف العربية، وأبدى رأيه منذ زمن بعيد، وكان الغرض من تجديد حركة تيسير الكتابة العربية خلال الفترات المختلفة من القرن الماضي هو الرغبة في تحسينها وضبطها وتجنيبها عند الكتابة والقراءة _ الخطأ واللحن، وكان السكاكيني على حماسة شديدة لهذه الحروف، ذلك لأنه شقق أسرارها، حتى أستخرج لنا دقائق كنوزها، مما يشهد على بذل جهود مثمرة نحوها، وإسدال مسحه من التقديس عليها، وخلص أمرها لديه إلا أنها صنعت كلها بحكمة وبلغت حد الكمال (الشنطي، ١٩٦٧: ٨٦-٨٧) (السكاكيني ٢٠٠٣: ٢٣)، ويشتكي البعض من الهمزة، ويقترح الاكتفاء بشكل واحد من أشكالها الأربعة وهي على الألف نحو (رأس) وعلى الواو نحو (لؤم)، وعلى الياء نحو (بئر) ووحدها متطرفة من دون كرسي في نحو (سماء)، لكن السكاكيني أرجع هذه الأشكال إلى طبيعة الهمزة في اللغة العربية، وبين كيف أن لها ثلاث حالات من الإثبات والتليين والحذف، وذكر أن شكلها لا يتغير، وأن القاعدة في. حكمها أن تكتب بحسب تليينها، بمعنى أنها إذا لينت بالواو كتبت على واو، وإذا لينت بالألف كتبت عليها، أو بالياء كتبت على ياء، وانتهى إلى أن همزتنا هذه لا نستطيع الخلاص منها، ولا نستطيع تجميدها على قالب واحد (الشنطي، ١٩٦٧: ٨٩-٩٠) (نهر، ١٩٨٩: ٢٧٤)، وهكذا مقت إلى حد بعيد دعوى تيسير هذه الحروف، واقتباس الحروف اللاتينية بديلا عنها، كما مقت من قبل تيسير النحو، وإلغاء الإعراب، ودعوى تقيد ألفاظ اللغة، واستبدال العامية بالفصحى، فهو لم يكن من أنصار استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، ولم يكن من أنصار تيسير حروفنا، ذلك لأنها لا تحتمل

التيسير، في حين أن عيوب الحروف اللاتينية كثيرة، فهي من جهة تزيد عن الحاجة، ومن جهة أخرى تنقص عن الحاجة، ومن جهة ثالثة تستعمل الحرف الواحد لأصوات مختلفة، إلى غير ذلك من النقائض إن السكاكيني رغم اعتزازه بالحروف العربية عن علم بها وبمقابلتها بغيرها لم ينكر بعض نقائض لحقت بها، مما تشكل الأمر على طلابها من المبتدئين وينبغي إلا تخلط بين خصائص الحروف العربية وإمكانية إصلاحها، وبين استبدال غيرها بها، والسكاكيني مرب مارس التعليم والتفتيش سنين طويلة، وعنى بالمدرسة والطلاب، ووضع المؤلفات للناشئة في القراءة وتعلم الأبجدية العربية فطبيعي أن ينتهي إلى صعوبة تعلم حروفنا يرجع –في غالبه– إلى سوء أسلوب التعليم، لا إلى تشاكل الحروف نفسها، مما دعاه إلى أن يقترح على مجمع اللغة العربية الدعوى إلى درس أساليب التعليم لاختبار الأحسن منها دون المساس بالحروف، لأن أساليبنا هي التي تحتاج إلى تيسير، لا الحروف ذاتها، والحق أنه كان يعتمد على الأذن في أكثر بحوثه الصوتية، لذا فهي تخلو من تحليل تشريحي، واستعمال لأجهزة الأصوات الحديثة في المعامل التي أستخدمها علم الأصوات الحديث) phoneties (في عهد غير بعيد، لكننا نظلم السكاكيني لو نشدنا فيه نتائج أكثر نضجا في علم الأصوات العربية؛ لان هذا العلم ما زال يحبو في أول الطريق، ولم يقطع دور طفولته بعد، فضلا عن أنه لم يتم نضجه. ولم تعط (الشنطي، ١٩٦٧: ٨٨–٨٩).

الأصوات العربية في اللغة حتى اليوم حقها الكامل من البحث، وما تزال في حاجة إلى المزيد من الدرس الذي يستأنس بأحدث ما أنتجه الغرب من الأجهزة والوسائل العلمية والنظريات(الشنطي، ١٩٦٧: ٩٢–٩٣).

الخاتمة :

بعد أن عشنا في رحاب خليل السكاكيني، يمكن نلخص أهم ما وقف:

١– إن نسيج السكاكيني مكون من المزيج الواسع من الثقافة العربية من خلال عروبته والانتماء لأمته، ومن الثقافة الغربية الحديثة، من خلال إيمانه بفلسفة (نيتشه) في القوة والحياة.

٢- للسكاكيني أراء في التجديد فيما يخص اللغة الفصحى والعامية والنحو والصرف والحروف والأصوات والكتابة والتي تبدو اليوم شيئاً مقرراً.

٣- كان مبتكراً وصاحب اجتهاد واسع، وكان متطرفاً في أرائه اللغوية بالجوهر. نزاعا إلى التجديد بالرغم من حفاظه على جوهر اللغة.

٤- كان من الرعيل الذي خدم اللغة العربية إذ شكلت آراؤه حلقة مهمة في سلسلة الدراسات اللغوية العربية الحديثة، ليس في فلسطين وإنما في أرجاء الوطن العربي. .Y

٥- تصدى للمشكلات النحوية وكان يصف لها الحلول دون المساس يراه مناسبا للعصر A .

٦- كانت بعض آراؤه مؤيدة للقدماء وطرح البديل للبعض الآخر وبما.. أضاف السكاكيني الكثير من الكتب إلى المكتبة العربية والتي كانت قسم منها تدرس للطلبة في بعض البلدان العربية إلى منتصف الستينات.

٧- ستبقى أبحاثه محتفظة بأصالتها، حتى يأتي الوقت الذي يرغب فيه حقا في إصلاح مجد، حينئذ نستلهم روحه ونستضيء بنور عقله، ونجد أنفسنا تلاميذ من جديد، فالسكاكيني كنز دفين له مواهب كثيرة.

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم.**
- ابن النديم (١٩٧٨): الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت–لبنان.
- حداد، يوسف أيوب (١٩٨٣): السكاكيني حياته مواقفه وأثاره، منشورات الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطيين.
- الحمد، د. غانم قدوري (د. ت) علم الكتابة العربية، مصر للطبع والنشر. عمان للنشر والتوزيع، ط١، عمان – الاردن.
- الحمداني، د. سالم أحمد، وأحمد ، د. فائق مصطفى (د. ت): تاريخ الادب العربي ، دراسة في شعره ونثره، العراق ، جامعة الموصل.

- الحملاوي، الشيخ أحمد (٢٠٠٦): شذا العرف في فن الصرف، تحقيق: د. يوسف الشيخ محمد، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان.
- الزركلي ، خير الدين ، الأعلام (١٩٥٩): ط٢، القاهرة .
- السكاكيني (٢٠٠٣): المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكيني، المدرسة العربية.
- الشنطي، عصام محمد (١٩٦٧): خليل السكاكيني اللغوي، معهد البحوث والدراسات العربية ، مطبعة الجبلاوي، ط١، القاهرة .
- صيام، أحمد (د. ت): مركز أعلام البيرة، (د.ط)، القدس .
- العابد، عبد السلام (د. ت): تجربة السجن والغربة والبعد عن الوطن والاهل، (د. ط) (د.م).
- فريحة، د. أنيس (١٩٧٦): دلالة الالفاظ ، مكتبة الانجلو المصرية، ط ٣.
- القلقشندي، أحمد (ت٨٢١هـ)، (١٩٨٧): صبح الاعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت– لبنان.
- كحالة، عمر (١٩٥٧): معجم المؤلفين، مطبعة الشرقي، دمشق .
- الكخن، وديان (د. ت): مدونات مكتوبة، (د.ط) ، فلسطين.
- مجلة الورد (٢٠٠١): فلسطين، العدد الاول، المجلد التاسع والعشرين، دار الشؤون الثقافية– وزارة الثقافة، ط١، بغداد.
- مسلم، أكرم (د. ت): المستخلص، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، (د.ط).
- الموسوعة الحرة، ويكيبيديا، (د. ط) (د.ت) (د. م).
- نهر، د. هادي (١٩٨٩): الصرف الوافي دراسة وصفية تطبيقية في الصرف، مطبعة التعليم العالي، الموصل .
- النيل والفرات، الجزء الاول والجزء الثاني (د. ط) (د.ت) (د.م).
- وافي، د. علي عبد الواحد (٢٠٠٤): علم اللغة، دار نهضة، ط٧، مصر.
- يعقوب، أميل بديع (١٩٩٩): فقه اللغة العربية وخصائصها، دار الكتب للطباعة والنشر– جامعة الموصل، ط٢.